أوراق فرعونية

من دفتر عالم آثار شهير

تأليف

د. سليم حسن

الكتاب: أوراق فرعونية.. من دفتر عالم آثار شهير

الكاتب: د. سليم حسن

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

حسن، سليم

أوراق فرعونية.. من دفتر عالم آثار شهير / د. سليم حسن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٨٤ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٥٦٢ / ٢٠٢٠

أوراق فرعونية

من دفتر عالم آثار شهير



مقدمة

الدكتور سليم حسن واحد من أبرز الأثريين المصريين والعرب، لا يذكر اسمه إلا مقرونا بكتابه الأشهر «موسوعة مصر القديمة»، ذلك السفر الكبير الذي يتسع ليشمل ثمانية عشر جزءًا، والتي قيل عنها «هى أعظم موسوعة فى التاريخ المصرى القديم وتاريخ الحضارة المصرية القديمة، فهى تعد الموسوعة المتكاملة الوحيدة، فى أى لغة من لغات العالم، التى وضعها وصنفها عالم واحد بمفرده، تناول فيها شرحًا دقيقًا وتحليلًا مستفيضًا عن مراحل وتاريخ الحضارة المصرية، بدءًا من عصور ما قبل التاريخ حتى قرب نهاية العصر البطلمى.

لكن اختزال الرجل في كتابه هذا يعتبر ظلما له وغضا للطرف عن إنجازات أخرى لا تقل أهمية، فقد كان له عمليا وميدانيا العديد من الاكتشافات الأثرية الهامة خصوصا في المنطقة المحيطة بأهرامات الجيزة، كما كان يُلقَّب بعميد الأثريين المصريين.

وقد بدأ سليم حسن في عام ١٩٢٩ أعمال التنقيب الأثرية في منطقة الهرم لحساب جامعة القاهرة لتكون المرة الأولى التي تقوم فيها هيئة علمية منظمة أعمال التنقيب بأيدٍ مصرية، وكان من أهم الاكتشافات التي نتجت عن أعمال التنقيب مقبرة «رع ور»، وهي مقبرة كبيرة

وضخمة عثر فيها على الكثير من الآثار، وفضلا عن الاكتشافات له كتب وترجمات عديدة تتعلق كلها بالآثار أو بتاريخ مصر القديمة، وله غير الكتب مقالات ومحاضرات تسير في ذات الإتجاه وبعضها لم ينشر في كتاب، فقمنا في (وكالة الصحافة العربية – ناشرون) بجمعها ونشرها في الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء الآن تحت عنوان "أوراق فرعونية.. من دفتر عالم آثار"، وهدفنا هو جمع وتوثيق المتناثر من تراث العلامة الكبير.

والقارىء للمواد العشر التي تشكل متن كتابنا يكتشف أنها تدور في محورين، أولهما عن علم المصريات والاكتشافات الإثرية، وثانيهما عن التاريخ للاجتماعي في مصر القديمة من وجهة نظر عالم المصريات الكبير، وقد رأينا أن نبدأ الكتاب بالحوار الذي أجري معه في صحيفة مصرية، وتحدث فيه عن منهجه في البحث التاريخي والاكتشافات الأثرية، فهو يأتي بمثابة مقدمة للكتاب، وقبل أن تقرأ يجدر بنا أن نقف قليلا على سيرة الرجل وإنجازاته.

ولد سليم حسن في الخامس عشر من شهر أبريل عام ١٨٨٦م بقريةِ ميت ناجي بمركز ميت غمر محافظة الدقهلية، وكالعادة التي كانت متبعة في ذلك العصر إلتحق بكتاب القرية. وقبل أن يصل إلي سن المدرسة الإبتدائية، وقد توفِّي والده وهو صغير فقامت أمه برعايته وأصرت على أن يكمل تعليمه، فحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٩، وبعدها إلتحق بمدرسة المعلمين العليا وكان من حسن حظه أن أحد أساتذته فيها كان "أحمد كمال باشا" وهو أول عالم مصريات مصري ويعتبر الأب الروحي للاثريين المصريين، وقد اختاره لتفوقه في

مادة التاريخ لإستكمال دراسته بالمدرسة المسائية العليا لدراسة الآثار التى أنشأها أحمد كمال باشا، وقد تخرج فيها عام ١٩١٣م، وحصل علي دبلوم الدراسات الأثرية واللغة المصرية القديمة.

عمل سليم حسن بعد تخرجه عمل مدرسا للتاريخ واللغة الإنجليزية بالمدرسة الناصرية بالقاهرة ثم نقل إلى مدرسة طنطا الثانوية ومنها إلى مدرسة أسيوط الثانوية ثم عاد إلى القاهرة ليعمل مدرسا في المدرسة الخديوية الثانوية، واختارته وزارة المعارف العمومية لوضع كتب التاريخ المصرى لمختلف مراحل التعليم فى المدارس، فألّف وترجم كتبا عديدة منها "تاريخ مصر من الفتح العثماني حتي فترة حكم أسرة محمد علي باشا" و"تاريخ أوروبا الحديثة وحضارتها" وشاركه في تأليفهما عمر السكندري، كما ترجم تاريخ دولة المماليك في مصر بالإشتراك مع محمود عابدين وصفحة من تاريخ محمد علي باشا بالإشتراك مع طه السباعي . وحاول سليم حسن أن يلتحق بالعمل في مصلحة الآثار المصرية التي كان يسيطر عليها الأجانب لكن محاولاته لم يكتب لها النجاح إلا بعد قيام ثورة ١٩١٩م فسنحت الفرصة له، إذ إنتهز أحمد شفيق باشا وزير الأشغال العمومية آنذاك فرصة تعيين أمينين فرنسيين بالمتحف المصري وأصر على تعيين أمينين مصريين مساعدين لهما، ومن ثم إلتحق سليم حسن بالمتحف أمينا مساعدا عام ١٩٢١م وهناك تتلمذ على يد عالِم الآثار الروسي جولانشيف، وكان واحدا من أهم الأثريين في العالم وقتها، وفي العام التالي ١٩٢٢م سافر سليم حسن في رحلة إلي أوروبا برفقة أستاذه أحمد كمال باشا لحضور إحتفالات الذكرى المئوية

لعالم الآثار الفرنسي شامبليون، وزار خلال الرحلة فرنسا وإنجلترا وألمانيا وكتب عنها العديد من المقالات تحت عنوان "الآثار المصرية في المتاحف الأوروبية" كشف فيها عن النهب الذي حدث وكان ما يزال يحدث للآثار المصرية مثل رأس نفرتيتي التي شاهدها في الجناح المصرى بمتحف العاصمة الألمانية برلين كما كشف من خلالها عن دور الأثريين والمستكشفين الأجانب في ذلك الأمر، وطالب بتحرك رسمي وشعبي من أجل إستعادة الآثار المسروقة.

وفي عام ١٩٢٥م إستطاع أحمد كمال باشا إقناع وزير المعارف العمومية آنذاك بإرسال بعض المصريين للخارج في بعثة لدراسة علم الآثار وكان منهم أحمد عبد الوهاب باشا ومحمود حمزة ومحمد شفيق غربال وسامي جبرة وسليم حسن، وكانت البعثة نقطة تحول كبيرة في حياتهم.

وواصل سليم حسن دراسته حتى حصل على درجة الدكتوراه في جامعة فيينا عام ١٩٣٤ وخلال إقامته بالنمسا التحق بكلية الدراسات العليا بجامعة السوربون التي حصل منها على دبلومتين في اللغة والديانة المصريتين القديمتين كما حصل على دبلوم اللغات الشرقية واللغة المصرية القديمة من الكلية الكاثوليكية ودبلوم الآثار من كلية اللوفر.

وعندما عاد إلى مصر عين أستاذًا لكرسى الآثار عام ١٩٣٥، وأتيح له عندئذ القيام بحفائر أثرية ضخمة لحساب المتحف المصرى وجامعة فؤاد الأول فى منطقة الأهرامات وأبى الهول، وسقارة، اكتشف مجموعات كاملة من الجبانات، والمعابد، والقطع الأثرية، التى ألقت

الأضواء العلمية على تطور نظام الحكومة والإدارة، والنظم الاجتماعية، والعقائد الدينية فى عصر الدولة القديمة، كما قام برحلات كشفية إلى بلاد النوبة، أسفرت كذلك عن اكتشافات أثرية مهمة.

ونظرا لمجهوداته المتميزة تم تعيينه وكيلًا عاما لمصلحة الآثار المصرية ليكون أول مصري يتولى هذا المنصب، وقتها اتصل بالقصر الملكى لاسترداد مجموعة قطع أثرية كانت فى حيازة الملك فؤاد، فأعادها الملك إليه لعرضها بالمتحف المصرى بالقاهرة، لكن عندما تولى الملك فاروق عرش مصر بعد وفاة أبيه، طالبه بإرجاعها باعتبارها ممتلكات خاصة لأبيه.. فرفض سليم حسن هذا الطلب، فتعرض للعديد من المؤامرات ضد وجوده فى المناصب الرسمية بالآثار، إلى أن أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٩، وعمره ستة وأربعين عامًا.

وبتركه وظيفته تفرغ تماما للبحث والدراسة وتأليف الكتب عن التاريخ والآثار المصرية، وقد تعاطف الرئيس جمال عبدالناصر مع هذا العالم الكبير، وتفهم قدره الذى يشرف مصر والمصريين، فأصدر قرارًا بإيفاده لزيارة متاحف العالم التى تعرض القطع الأثرية المصرية.. وفي عام ١٩٥٤م إستعانت الحكومة المصرية بخبرته الكبيرة فعينته رئيسا للبعثة التي تم تكليفها بدراسة مدى تأثير بناء السد العالي على آثار النوبة جنوبي مصر، كما أشرف على حفائر مصلحة الآثار المصرية في بلاد النوبة عام ١٩٥٨م وعلى عملية جرد المتحف المصري عام ١٩٥٩م بعد أن تم تعيينه مستشارا له وفي عام ١٩٦٠م تم إنتخابه عضوا بالإجماع في أكاديمية نيويورك التي تضم أكثر من ١٥٠٠ عالِم من ٧٥ دولة، ولم

يسعفه القدر أن ينفذ تكليف الرئيس عبد الناصر له بأن يؤلف موسوعة عن نهر النيل وكان قد أرسله ضمن بعثة خارج مصر لهذا الغرض.

أما عن عمليات الحفر والتنقيب التي قام بها سليم حسن من عام ١٩٢٨م وحتي عام ١٩٣٩م، فقد بلغ عددها ١٧١ عملا كان من أهمها حفائره في منطقة الأهرامات بالجيزة إذ كشفت عن عدد كبير من مقابر الدولة القديمة وتعد مقبرة رع ور التي كشفها جنوبي منطقة أبو الهول من أكبر المقابر، وتضارع من حيث ضخامتها وكثرة التماثيل بها مقابر الملوك، كما كشف عن مقبرة الملكة خنكاوس آخر ملوك الأسرة الخامسة والتي تعد حلقة الوصل بين تلك الأسرة والأسرة السادسة وصممت المقبرة على هيئة تابوت أقيم فوق صخرة كبيرة، وأطلق سليم حسن على هذه المقبرة الهرم الرابع وكشف أيضا عن مقابر أولاد الملك خفرع بالإضافة إلى مئات القطع الأثرية والتماثيل ومراكب الشمس الحجرية للملكين خوفو وخفرع، كما كشفت حفائره أيضا في منطقة أبو الهول عن أسرار هذا التمثال وقد كشف عنها في كتاب عن أبي الهول.

وكان قد شرع في كتابة الجزء التاسع عشر من «موسوعة مصر القديمة»، عن الملكة كليوباترا وكان يعد إصدار أجزاء إضافية عن العصر الروماني ومابعده، لكن الموت طوى صفحته فتوقفت الموسوعة.

الناشر

برنامجي في الاكتشاف .. التخمين، أم المصادفة، أم اليقين؟

حوار مع سليم حسن (*)

نجح المكتشف المصري الأستاذ سليم حسن، في العثور على مقبرتين عظيمتي الأهمية من الوجهة الأثرية. إحداهما يرجع تاريخها إلى نحو خمسة آلاف سنة. وهي لغلام في الثانية عشرة من عمره من أسرة الأمير "كاى" حاكم العاصمة وابن منقرع. وثانيهما لشخص يدعى "سشمو" وهو من الأسرة الخامسة التي يرجع تاريخها إلى ٤٨٠٠ سنة.

وكلتا المقبرتين تحتويان على مخلفات فرعونية هامة تكشف اللثام عن التقاليد المصرية القديمة. وتمكن الباحثين من أن يرسموا صورة صحيحة للطقوس الدينية حسب عصورها.

والأستاذ سليم حسن معروف باكتشافاته الأثرية منذ سنة ١٩٢٩وقد أرسل في بعثة إلى أوربا لدراسة الآثار القديمة. ثم عادل إلى مصر سنة ١٩٢٧ فتعين مساعداً بالمتحف. وفي هذا العام نفسه انتدبته الجامعة المصرية لتدريس علم الآثار. ثم عملت الجامعة على الاحتفاظ به كأستاذ فيها لتدريس هذا العلم. وفي العام التالي سمحت له كلية الآداب بان يشتغل مع الأستاذ ينكر في الحفائر القديمة على أن يقوم فيما بعد– باسم الجامعة المصرية– باكتشاف آثار الفراعنة.

وتم ذلك كله. وابتداء الأستاذ سليم حسن اكتشافاته في منطقة

أهرام الجيزة، فاكتشف لأول مرة أكبر مقبرة في الدولة القديمة، وهي مقبرة (ر ع ور) الكاهن الأكبر للوجهين القبلي والبحري. ثم اتبع هذا الاكتشاف بعدة اكتشافات أخرى في هذه المنطقة آخرها اكتشاف المقبرتين السالفتي الذكر، واكتشاف الهرم الرابع لأهرامات الجيزة الذي يعد حادثاً عظيم الأهمية في الاكتشافات المصرية. لأن صاحبته وهي "الملكة خنت كاوس" أول مصرية حملت لقب الملوكية في الدولة القديمة. وهو يقوم في شرق الهرم الثالث وتبلغ مساحة قاعدته ثلاثة آلاف متر مربع وبهذه المناسبة أردت أن أتحدث مع الأستاذ سليم حسن عن برنامجه في الاكتشاف وعن الأساس الذي يبني عليه هذا البرنامج. وعن أشياء أخرى يشتاق القراء إلى معرفتها.

برنامج الاكتشاف

فقلت له: "ما هو البرنامج الذي وضعتموه لاكتشافاتكم، وما الأساس الذي بنيتم عليه هذا البرنامج: هل هو التخمين أو المصادقة أو اليقين؟".

فقال: "بدأت برنامجي– كما ذكرته في أول كتابي الذي سيظهر قريباً– بالطريق الموصل بين معبد خفرع وهرمه. وهذا الطريق يكاد يكون أهم شارع في منطقة أهرام الجيزة. ويقوم معبد خفرع على شمال السائر فيه وبجوار هذا المعبد مقبرة زوجة خفرع وأم منقرع. ولما كان هذا الطريق هو أهم شارع في تلك المنطقة، وكان هذا المعبد أول شيء يوجد على شماله وكانت هذه المقبرة بجواره، فلابد أن يكون الذي يليها مقبرة

كبيرة. لذلك توجه فكري إلى الحفر بجوار هذه المقبرة ففي أول يوم بدأت فيه الحفر ظهرت مقبرة (ر ع ور). ثم اتضح أنها أكبر مقبرة في الدولة القديمة، وأن نظامها مخالف لأنظمة المقابر الأخرى. وأن صاحبها- على ما ظهر- هو الكاهن الأكبر للوجهين القبلي والبحري. وهو أول شخص اكتشف له مائة وعشرون تمثالاً، وخمسون سرداباً.

"فالمسألة إذن ليست مسألة تخمين أو مصادفة، بل هي مسألة يقينية مبنية على المعلومات الصحيحة التي تتعلق بالمكان الذي نقوم فيه بالحفر والتنقيب.

"وكان من الضروري ونحن ننقب في منطقة كمنطقة أهرام الجيزة أن نعثر فيها على مخلفات لعظماء الدولة القديمة. وكلهم كهنة أو رؤساء لأحد الملوك الثلاثة وهم خفرع ومنقرع وخوفو.

"وقد نهبت هذه المنطقة مراراً. ولكن نظام الحفر الذي اتبعناه مبنى على القواعد العلمية المحضة. ولهذا فإننا إذا حفرنا مكاناً ولم نعثر على شيء، فإننا نخرج من هذا المكان برسم علمي لأنظمة المقابر ومدينة الأموات التي كانت أهميتها عند قدماء المصريين لا تقل عن مدينة الأحياء. والفرق بينهما أن الأولى كانت تبنى بالأحجار والثانية بالطوب، بل ربما كانت مدينة الأموات أعظم أهمية لأنها كانت عندهم البيت الأبدي. أما مدينة الأحياء فكانوا يعتبرونها البيت الزائل".

قلت: "وهل يمكننا أن نعرف الطريقة العملية التي تسيرون عليها في هذا الاكتشاف؟"

فقال: "طريقتي التي أسير عليها في اكتشافاتي هي الطريقة التي غايتها أن أصل إلى الشيء من أساسه بأن أقوم بتنظيف كل شيء. وهذا التنظيف على ثلاثة أدوار: تزال في الدور الأول منها طبقة الرمل العليا، ثم تزال طبقة الأحجار الصغيرة التي تحتها، فإذا أزيلت هاتان الطبقتان ظهرت طبقة المباني القديمة. فنقوم بتنظيفها وتنقيتها. وهذه المباني تكون في العادة مبنية من الأحجار أو من الآجر أو منحوتة في الصخر.

"ولكل عملية من هذه العمليات أناس يساعدونني فيها. فإذا انكشف كل شيء ووصلت إلى حجرة الدفن استعنت ببعض المهندسين والنقاشين والفتوغرافيين لأخذ جميع الرسوم والصور اللازمة التي تحفظ لنا الأوضاع الأصلية لهذه المكتشفات".

الأماكن الأثرية

قلت: "وما هي الأماكن الأثرية التي تعتقدون أن بها مخلفات فرعونية؟"

فقال: "أما فيما يختص بمنطقة أهرام الجيزة فإنها "جبانة" يغلب فيها وجود مقابر عظماء الأسرتين الرابعة والخامسة. ومعظم المدفونين بها كانوا في خدمة الملوك: خوفو، وخفرع ومنقرع. ولما كانت جبانة ملكية فإن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يدفنون فيها أمراء دولتهم وكبار موظفيهم. فمثلا "ر ع ور" كان في عصر ثالث ملوك الأسرة الخامسة، وهو "نفر أركرع"– وإن كان هذا الملك مدفوناً في جهة أبي صير إلا أن هذا الكاهن العظيم دفن في جبانة أهرام الجيزة. وقد اختير له هذا

المكان لأنه جبلي مرتفع. وكان من عادة قدماء المصريين أن يدفنوا موتاهم في الأماكن الجبلية البعيدة عن المياه.

"أما فيما يختص بالمناطق الأخرى فعندنا منطقة سقارة. وهي منطقة تعد أغنى المناطق الأثرية في العالم.

"ويغلب على اعتقادي أنه لو خصصت عشرة آلاف جنيه كل عام لاكتشاف جميع ما احتوت عليه هذه الجبانة لما أمكن الانتهاء منها قبل ستين عاماً.

"وتوجد مناطق أخرى غير منطقة سقارة. وهي في الجهات الجبلية الموجودة على الضفة الغربية للنيل. ومنها جات: أسيوط، وبني حسن، ودهشور، ووادي الملوك".

نسبة المكتشف من الآثار

قلت: "وهل تمكن معرفة نسبة الآثار التي اكتشفت إلى ما لم يكتشف؟".

فقال: "يكاد يكون ما اكتشف من الآثار المصرية القديمة حتى الآن نحو النصف، بل ربما كان ما لم يكتشف أكثر من النصف. وهذا ما يجب أن يحفز الهمم إلى الاجتهاد في اكتشاف هذه الآثار التي ما تزال مطمورة تحت الرمال، وما يزال تاريخها وتاريخ كثير من أصحابها غير معروف.

"وحبذا لو استوعبت الاكتشافات الفرعونية جميع الأماكن الأثرية

الموجودة بمصر. إذن لصححنا كثيراً من الأغلاط التاريخية. ولوقفنا على ما نجهله من تاريخ قدماء المصريين. ولعرفنا جميع أنظمتهم وسياستهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية وملوكهم ورؤسائهم وكهنتهم وما كانوا يستعملونه من الأدوات ويمارسونه من الفنون والعلوم في مختلف العصور".

بيع الآثار المصرية

قلت: "اقترح بعضهم بيع الآثار المصرية. والانتفاع بأموالها في تخفيف الأزمة المالية وتنفيذ بعض المشروعات العصرية، فما هو رأيكم؟".

فقال– وقد ظهرت عليه علائم الاستغراب–: "إنني اعتقد أن الشخص الذي ليس له ماض لا يستحق أن يكون له حاضر. والشخص الذي يري بيع ماضيه ونسيانه والتخلص منه لا يكون مثله إلا كمثل الذي يجهل أباه ولا يدري من أين أتت به أمه.

"فنحن إذا بعنا آثار أجدادنا. فإنما نكون كأحد هذين الشخصين. ولجنينا على الأجيال القادمة التي تأتي بعدنا فلا تجد عندها من تراث أجدادها ما يذكرها بالماضي ويبعث في نفوس أبنائها المجد والفخار. بل أن هؤلاء الأبناء سيحرمون من كل فائدة أدبية ومادية تعود عليهم من هذه الآثار. وسيكون شأنهم كغيرهم من الأجانب الذين لا تربطهم بهذه الآثار صلة.

"وإذا كان تاريخ الماضي عبرة الحاضر والمستقبل. وإذا كان مجد الآباء هو المنار الذي يهدي الأبناء إلى أن ينهجوا نهجهم ويتشبهوا بهم

في كل ما يقومون به من جلائل الأعمال وأمثلة العظمة والفخار على حد قول القائل:

بأبه اقتدى عـــدي في الكرم ومن يشـــابه أبه فما ظلم[٢]

"إذا كان هذا هو الفائدة التي تعود على أبناء مصر من بقاء آثار الفراعنة أمام أنظارهم- فصور لنفسك كيف يكون مقدار الخسارة التي تلحق مصر وتلحق الأجيال القادمة إذا بيعت هذه الآثار.

"وأنا أصرح لك أن أهم باعث دفعني إلى القيام بهذه الاكتشافات التي أمارسها الآن هو رؤيتي للآثار المصرية. وشدة اتصالي بها في المتحف وكثرة ترددي عليها وإعجابي بعظمتها على الدوام.

"على أنني أحب أن أعرف هل نفذت موارد الثروة عندنا. وهل بعنا كل شيء حتى لم يبق إلا هذه الآثار الثمينة التي يقترح بعضهم بيعها للحصول على جانب من المال يظنه الشيء الوحيد لارتقاء مصر وبلوغ أوج الأمم الراقية.

"وكأن صاحب الاقتراح يعتقد أن وفرة المال هي كل شيء لارتقاء الأمة إذا هي فقدت الروح الأدبية ونسيت أنها أمة جديرة بالرقي، حقيقة بأن تحيي ما كان لها من مجد قديم.

"ولأضرب لك مثلاً انجلترا: هل كانت تنفعها ثروتها الطائلة ومواردها الغزيرة لو لم تكن عندها تلك القوة المعنوية. ولو لم يكن أهلها الحاليون من شعب سكسوني حى له تاريخه المجيد. ثم ما الذي عملته

ثروة الهنود الطائلة في سبيل المدنية والاستقلال؟.. وهل دفعت المناجم الذهبية في الترنسفال فتوحات المستعمرين؟

"ثم ما الذي أضاع صولة الرومان وعظمة اليونان ومجد العرب: أهو قلة المال أم ضعف الروح القومية. وانهيار قواها المعنوية التي كانت هي الثروة الكبرى التي فتحت بها شاسع البلدان وأقامت عليها عرش صولتها وعظمتها ومجدها.

"إن رقي الأمم عدوى تستفيدها من الأمثلة العليا التي حولها. فإذا كانت مصر الآن تأخذ عن غيرها وسائل الرقي والحضارة. وكان لديها من تراث آبائها ما يجب أن يكون مثلها الأعلى ومحل فخارها. فعليها أن تحتفظ به. وأن تبث في أذهان أبنائها حبه والحرص عليه حتى يكون قدوة الحاضر والمستقبل، وحتى يكون لهذه التراث في الأجيال القادمة من التأثير والعدوى ما يشعرها بالقوة المعنوية ويبعثها على أن تستعيد مجدها القديم وعظمتها الغابرة".

قلت للأستاذ: "وهل تدعون إلى الاكتتاب لاكتشاف ما بقي من الآثار المصرية؟"

فقال: "من الغريب أن أول من اهتم بهذا الموضوع هم الأجانب. وكانت أول جمعية قامت لهذا الغرض هي "جمعية البحث عن الآثار المصرية" بإنجلترا وقد اكتتب فيها كثير من العلماء والأغنياء الإنجليز. وامتد اكتتابها في بعض الأحيان إلى أميركا وكان كل مكتتب يأخذ عل قدر ما يدفعه.

"ولما حظرت مصر خروج الآثار من بلادها كان بعض الأجانب يتطوع للبحوث الأثرية بما يقدر عليه من المال دون أن يأخذ شيئاً.

"وكل الحفائر التي قامت بها البعثات الألمانية استمدت نفقاتها من الاكتتابات. وكذلك الشأن في الحفائر التي قامت بها البعثات الأميركية.

"فإذا كان هذا هو شأن الأجانب وهم غرباء عن المصريين الأقدمين، أفلم يكن من واجب المصريين الذين هم ورثة الفراعنة أن يكتتبوا للحفر عن آثار أجدادهم، ولاسيما بعد ما وجد فيهم من يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل.

"حبذا لو وجد أربعون غنياً من أغنيائنا يكتتب كل واحد منهم لهذا العمل بمائة جنيه، إذن لتكون عندنا أربعة آلاف جنيه. وهذا المبلغ إذا أعطى لثقة من الثقات لاستطاع أن يكتشف في منطقة أهرام الجيزة أو سقارة أو دهشور ما يساوي أضعاف أضعاف هذا المبلغ.

"وإذا كان الوقت قد آن لأن يقدر المصريون هذا العمل، ويعتمدوا على أنفسهم فيه دون مساعدة الحكومة، فإننا نستطيع أن نقول أن مصر قد خطت خطوة كبيرة".

....

(*) **مجلة الهلال – عدد مارس ١٩٣٢**

عن مصلحة الآثار المصرية .. حوار مع سليم حسن (*)

- ما هو تاريخ اشتغال المصريين بدارسة الآثار في مصر؟

يعد فك رموز اللغة الهيروغليفية، واتجاه الأنظار إلى دراسة الآثار المصرية دراسة جدية أنشئ المتحف المصري سنة ١٨٥٨ بجهود أحد العلماء الفرنسيين "مارييت باشا". وقد كان من الطبيعي أن يكون من ضمن رجال المتحف والمصلحة في الأقاليم بعض المصريين. وقد نبغ من هؤلاء أكثر من واحد، في مقدمتهم المرحوم أحمد باشا كمال، إذ أنه قام بعمل كثير من الحفائر العلمية، ووضع عدة مؤلفات نفيسة بالنسبة لذلك العهد. كما كان لهُ مقامهُ المحترم بين معاصريه من العلماء الأجانب.

وكان للمرحوم أحمد كمال باشا طلبة يدرسون عليه، وقد نجح في آخر سنة من حياته في حمل الحكومة على إنشاء مدرسة عالية لدراسة الآثار المصرية. افتتحت هذه المدرسة فعلاً في أوائل عام ١٩٢٤، ولكن القدر وافاه قبل افتتاحها بقليل. وعند إنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ألحق بها قسم للآثار تابع لكلية الآداب، ضمت إليه المدرسة القديمة، واختير الأساتذة من بعض المصريين الذين اشتغلوا بهذا الفن، وعاونهم بعض الأجانب من علماء الآثار.

- من هم الأساتذة الأحياء الذين أسسوا دراسة الآثار في مصر؟

كان طلبة المرحوم أحمد باشا كمال عديدين، ولكن الذين استمروا جديا في الدراسة واتخذوها عملاً لهم اثنان الأستاذ محمود حمزة الأمين المساعد للمتحف وأنا. ومن بين زملائنا في ذلك العهد صاحب السعادة أحمد باشا عبد الوهاب وزير المالية السابق، والأستاذ رمسيس شافعي مدير. صنع طرابيش القرش والأستاذ أحمد البدري ناظر مدرسة الفيوم الثانوية.

- ما هي جهود قسم الآثار والنتائج العلمية التي وصل إليها مدة إشرافكم عليه؟

عندما عينت للتدريس في كلية الآداب، وجدت أن رفع مستوى الدراسات الأثرية لا يتم إلاّ بعمل حفائر علمية لكي تساهم الجامعة بنصيبها بين الجامعات الكبرى، ولنكون هذا الحفائر مدرسة عملية لتمرين الطلاب فيها. وفي نفس الوقت كان لي مساعدون يعاونونني في الإشراف على هذه الحفائر. وهؤلاء لم يمرنوا التمرين الكافي، وكثيرون منهم يمكنهم القيام الآن بأي حفائر علمية، لا تقل في قيمتها عن قيمة أية حفائر يقوم بها أجنبي. وقد أتمت هنا هذه الحفائر موسها الثامن وظهرت المؤلفات الخاصة ببعضها.

أما هذه الحفائر التي تقوم بها فهي في منطقة أهرام الجيزة، ولست أريد الإطالة في الحديث عما لهذه المنطقة من الشأن، ولا من الآثار القيمة التي عثرنا عليها، أو الفوائد العلمية التي أضافتها هذه الحفائر إلى

العلم. ولكن يكفي أن نذكر أن نتيجة هذه الحفائر قد كشفت كشفاً تامًّا عن عصر ملوك الأسرة الرابعة، وقد وجدنا مقابر الكثيرين من الأسرة المالكة في ذلك العهد، مع ما احتوته من آثار هامة، كما أن الحفائر في الموسم الأخير حول أبي الهول، أتاحت الفرصة لحل كثير من رموزه، وأصبحنا لأول مرة نعرف حقيقته وتاريخه والملوك الذين كانوا يقدمون لهُ احتراماً خاصًّا، ويقيمون المنشآت تمجيداً لهُ.

- هل تتفضلون بذكر شيء موجز عن حقيقة أبي الهول؟

من المحقق أن تمثال أبي الهول يمثل أحد الآلهة وقد صنع في الأسرة الرابعة، ولم نصل إلى اسمه في ذلك العهد، ولكن الحفائر الأخيرة أماطت اللثام عن الكثير مما يختص به، فنحن نعرف الآن أنهُ كان يعتبر آلهاً من آلهة الشمس، أسمهُ "حور مخيس" أي "حورس في الأفق"... ولأول مرة علمنا أنهُ كان لهُ اسم آخر هو الأصل الذي أخذت منهُ كلمة "ابي الهول" محرفة عن الأصل القديم بار هون.

كما كشفنا حوله عن لوحات كثيرة أهمها اللوحة العظيمة التي أقامها الملك امينوفيس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة، جاء فيها أنهُ تولى الملك وهو "في سن الثامنة عشرة وأنهُ كان قويًّا محبًّا للجياد، وليس في المملكة من يناظره "كما ذكر أيضاً أنهُ قام برحلة من سقارة إلى الهرم وأعجب بتمثال أبي الهول وأمر بإنشاء هذه اللوحة مع معبد صغير لتكون بجوار آثار أجداده وقد وجدنا هذه اللوحة مقامة في مكانها كما وجدنا المعبد الذي أشار إليه.

- **ما هو صدى هذه المكتشفات في الدوائر العلمية الأوربية؟**

ذكرت لكم أن هذه الحفائر أضافت كثيراً من المعلومات الهامة إلى التاريخ المصري، وعلم الآثار المصرية. ومن الطبيعي أن تكون النتائج التي وصلنا إليها موضع اهتمام علماء الآثار في كل مكان وجميع الذين يفدون منهم يزورونها كما أن المؤلفات العلمية الخاصة بها تعنى بالحصول عليها جميع الهيئات العلمية، ويسرنا أن نذكر إنها كانت موضع تقديرهم، كما أن أكثر المجلات الخاصة بالآثار أشادت بهذه الحفائر ورحبت بالنتائج التي وصلنا إليها.

- **ما هي الأسباب التي تحول دون نشر مؤلفات الآثار التي يكتبها مصريون باللغة العربية.. لغة البلاد؟**

الحقيقة أنهُ ليس هناك صعوبة في التأليف باللغة العربية، ولكن هناك عامل هام لا يمكن إغفاله وهو أننا في مستهل حياتنا العلمية الأثرية وأكثر علماء العالم لا يجيدون اللغة العربية، فأصبح من الخير أن ننقل لهم أبحاثنا ونتائج مجهوداتنا إلى لغاتهم لكي يتحققوا من أن المصريين لا يقلون عنهم في شيء، وأن لهم أبحاثاً تفيدهم، كما استفدنا نحن ومازلنا نستفيد من أبحاثهم. وهناك أمم كثيرة مثل اليابان وروسيا وبولندا يكتب علماؤها بحوثهم العلمية الصميمة بإحدى اللغات الثلاث الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية.. وهذا لا يحول دون وضع هذه المؤلفات باللغة العربية متى توافرت الوسائل اللازمة والظرف المناسب.

- ما هي الصورة المثالية التي ترجونها لدراسة الآثار في مصر؟

إن ما أرمي إليه هو تعميم دراسة الآثار في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية، وأن أرى المصريين يقومون بالبحث عن تاريخ أجدادهم على صورة تماثل الصورة التي وصل إليها العلماء الأجانب. والتفكير في هذا الموضوع يؤدي إلى أن ندرك أننا يعوزنا شيء كثير للوصول إلى هذه الغاية. وإني أقدم بعض أمثلة أتمنى تحقيقها في القريب العاجل.

أولاً– قيام بعض الشبان المصريين الذين درسوا الآثار بحفائر علمية واسعة النطاق، وإني اذكر مع السرور أن بعض هؤلاء الشبان قد بدأ فعلاً بمثل هذه الأعمال.

ثانياً– إنشاء متاحف محلية في عواصم المديريات، وإذا كانت البلدان المتوسطة في أوربا لها متاحف بها أقسام مصرية تحوي مكتشفات هامة فمن واجب مصر، وهي مهد هذه الحضارة القديمة، أن تنشأ فيها متاحف في مختلف الأقاليم تبين أولاً الآثار المكتشفة في هذه الجهة، كما تحوي أيضاً بعض الآثار المكتشفة في جهات أخرى والتي تزيد عن حاجة المتحف المصري، ولا يخفى ما في إنشاء مثل هذه المتاحف من فوائد، إذ أنها على الأقل توجه نظر سكان كل مديرية إلى تاريخها القديم وتبعث نشاطاً وتنافساً في الإقبال على الحفائر.

ثالثاً– أن تهتم وزارة المعارف بتسهيل دراسة التاريخ والآثار في مدارسها بأن تعهد إلى فنيين بإلقاء محاضرات ودروس، وتنظيم الرحلات،

وحفظ مجموعات كاملة من الصور للآثار المصرية حتى يشاهدها التلاميذ والتلميذات بالفانوس السحري.

رابعاً– أن تشجيع وزارة المعارف المؤلفين المصريين من الأثريين بنشر أبحاث تهم الشعب المصري، وتنمي فيه حبه لآثار أجداده بطبع هذه المؤلفات ومنح المكافآت اللازمة. وإني أؤكد أنهُ في اليوم الذي تقدم فيه وزارة المعارف على ذلك سيتقدم لها أكثر من فرد من المصريين بمؤلفات نفيسة تشرفهم كمصريين، وتأتي بالفائدة المرجوة للوزارة وللهيئات العلمية وللمصريين جميعاً.

....

(*) **المقتطف – عدد مارس – ١٩٣٧**

الطرق العلمية في البحث عن الآثار (*)

ولد علم المصريات في يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ حينما أتم شمبليون بحوثه العلمية، وحل رموز اللغة المصرية القديمة بعد جهاد دام أعواماً عدة. وعلى أثر ذلك عين أستاذاً لعلم المصريات في كليج دي فرانس سنة ١٨٣١، فكانت الخطوة الأولى في تأسيس علم الآثار المصرية في العالم أجمع.. والآن نبدأ موضوعنا فنتكلم أولا: عن الطرق التي كانت تستعمل في الكشف عن الآثار المصرية قبل أن يحل شمبليون رموز النقوش المصرية وقد ظلت هذه النقوش صامتة أكثر من عشرين قرناً، ثم نعقب على هذا بالطرق التي اتبعت في الحفر بعد شمبليون. وهذه الطرق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأولى طريقة كشف الكنوز بالتعاويذ السحرية، والثانية طريقة المجسات، والثالثة الطريقة العلمية الحديثة.

أولاً– طريقة الشعوذة وتنحصر في البحث عن كنوز الذهب الدفينة تحت الأرض بطريق السحر والبخور، هي التي يعمد إليها الدجالون المخادعون في كسب أرزاقهم. ولقد خدع بهم كثيرون أضاعوا ثروتهم في البحث وراء الكنوز بهذه الطريقة. ومن العجيب حقاً أنك مهما أقنعت طلاب الغني من هذه الناحية بأن تلك الكتب السحرية لا تدل أبداً على وجود كنز ما، فإنهم لا يقتنعون لأن توقع استكشاف الكنز وما عسى أن يجلب من الثروة يؤثر في عقولهم تأثيراً سحرياً، فتمتد آمالهم، وكلها

آمال خلب، حتى ينتهي بهم الأمر غالباً إلى الخراب ثم الجنون. وليس أدل على هذا من أنك تجد الآن أفراداً يهيمون على وجوههم في الصحراء والمغاور تاركين كل عمل مجد طلباً للكنوز الدفينة. وقد أنبأني مرة أحد أصدقائي أن أحد العظماء يريد أن يحدثني في أمر كنز يعلم هو مكانهن، وأن الوصول إليه لا يستغرق غير نصف ساعة، وبعد أن تحادثت وهذا الكبير طويلا، وضيقت عليه الخناق في بعض أسئلة، جابهني بالجملة الآتية: "أنا أعلم تماماً أنك تشتغل في الآثار بطريقة السحر، وأن كل ما عثرت عليه إنما أتى عن هذا الطريق". وكم من خطابات أرسلت إلي وكم من أفراد كابدوا مشاق السفر لإرشادي عن كنوز مشترطين ألا يبوحوا بمكانها، إذا إذا ضمنت لهم نصف ما فيها من الذخائر والأموال.

ثانياً– طريقة البحث عن الآثار بالمجسات، وهي طريقة كان يتبعها صنفان من الناس: الصنف الأول لصوص يسكنون بجوار الأكوام الأثرية والمدن القديمة فيسطون عليها في غفلة من أعين رجال مصلحة الآثار أو باتفاق مع بعض الحراس. فيعملون حفراً تؤدي أحياناً إلى كشف آثار قيمة. غير أن كشفها بهذه الكيفية يكون خسارة كبيرة للعلم، لأن اللصوص في أكثر الأحيان لا يبوحون بالمكان الذي عثر فيه على تلك الآثار عندما يبيعون ما عثروا عليه بل يضللون المشتري، وبذلك تفقد القطعة الأثرية قيمتها التاريخية وبخاصة إذا كانت خلوا من الكتابة. والجانب الأعظم من محتويات الأقسام المصرية في متاحف العالم قد اشتري بهذه الطريقة. وهنا أريد أن ألفت النظر إلى قيمة معظم محتويات المتحف المصري من الوجهة التاريخية فإن معظم القطع التي يحتوي

عليها معلوم مصدرها وتاريخ العثور عليها، فهي في الحقيقة تكاد تكون تاريخاً ناطقاً وهذه هي ميزة متحفنا على كل متاحف الآثار المصرية في العالم قاطبة.

على أن البحث بطريقة المجسات برغم ما فيه من نقص ظل شائعاً بين علماء الآثار أنفسهم إلى زمن غير بعيد، فنجد في معظم الأماكن الأثرية في جميع أنحاء القطر حفراً منتشرة هنا وهناك. وإذا سألت عن تاريخها وجدت أن العالم الفلاني قام بمجسات في هذا المكان سنة كذا ثم جاء غيره وقام بمجسات أخرى سنة كذا. وأكبر مثل على ذلك منطقة أهرام الجيزة قبل عام ١٩٠٣ فإنك تجدها مشوهة بحفر كثيرة من هذا النوع. وظلت طريقة البحث عن الآثار جارية على هذا الأسلوب، حتى جاء العالم الأثري الألماني "ليسيوس" إلى مصر ببعثة علمية أثرية محضرة عام ١٨٤٢. وتعد أعمالها بحق أكبر سند أثري، فإنه نقل كثيراً من النقوش المصرية القديمة والمناظر الأثرية ورسم خرائط لكل بقعة على حدتها وقام ببعض حفائر بسيطة كان الغرض منها إزالة الرمال والأتربة التي كانت تعترض سبيله في نقل النقوش، غير أنه لم يمعن في ذلك لأنه كان يقتصر على إزالة الأتربة الهينة التي لا تحتاج إلى عناء كبير ومال وافر، لذلك نجد الآن بعض المقابر التي نقلها، وبخاصة في منطقة أهرام الجيزة، لم تنقل على الوجه الأكمل لأنه ترك أجزاء مدفونة لم يتم الكشف عنها فبقيت نقوشها ناقصة، ولأن بعض المناظر وقع في نقلها بعض الخطأ. على أن عمله هذا يعد إلى الآن من أروع الأعمال التي تمت في عصره. وقد طبع نتائج بعثته إلى مصر في اثني عشر مجلداً، عدا المتن الذي يتألف من عدة أجزاء وهو كتاب **Denkmaier** ولقد

عقد له العلماء الفرنسيون وغيرهم لواء الزعامة على كل رجال البحث عن الآثار في عصره. وجاء بعده "ماريت باشا" فنقل كثيراً من النقوش التي وجدها على جدران المعابد والمقابر وطبع بعضها، ثم طبع "مسبيرو" الجزء الباقي منها بعد وفاته. وبالرغم من أن ماريت باشا يعد من أكبر علماء عصره ممن حافظوا على الآثار المصرية ودافعوا عنها بكل ما لديهم من قوة، إلا أن معظم ما نقله كان مشوباً باغاليط كثيرة. ومنذ أن رأس مصلحة الآثار عام ١٨٥٨، قام بعدة حفائر في أمكنة مختلفة، ولكنه عهد بها إلى رؤساء العمال، الذين كانوا لا يهتمون إلا بعمل مجسات للحصول على تماثيل أو حلي. ولذلك لم يسر العمل على أساس علمي، أما الأعمال التي تمت بإشرافه المباشر، فامتازت بشيء من الدقة يوائم العصر الذي حدثت فيه لهذا نجد قطعا كثيرة في المتحف المصري من هذا العهد لم يدون تاريخ العثور عليها، ولا يعرف من أين أتى بها، إذا لم تكن هناك طريقة علمية متبعة في الحفر. كل هذه الهفوات تتلاشى أمام ما قام به هذا الرجل العظيم من جهد في وضع أساس المتحف المصري الذي أخذ ينمو شيئاً فشيئاً منذ رياسته لمصلحة الآثار إلى وقتنا هذا، حتى أصبح من أضخم متاحف العالم.

ثالثاً– الطريقة العلمية ففي العام الذي توقى فيه ماريت باشا سنة ١٨٨١ هبط مصر "فلندرز بيترى" فكان أول من وضع حجر الأساس في طريق البحث العلمي للكشف عن الآثار المصرية، ويعد بحق أول من نظم أعمال الحفر في مصر بالطرق العلمية المحضة التي كان لها أكبر أثر في أحياء تاريخ بلادنا وإظهار ثقافتنا القديمة. وقبل أن أتكلم عن

الطريقة العلمية التي انتحاها "فلندرز بيتري" أريد أن أقف بكم لأحدثكم عن الممهدات التي قدمها لنا المصريون الأقدمون أنفسهم للكشف عن مخلفاتهم ولولاها لعانينا متاعب كثيرة من البحث عنها.

عرف المصريون منذ أبعد عصورهم التاريخية معدن الذهب وقيمته، فاستعملوه في صوغ الحلي والزينة وصنعوا منه الآنية. وكان في بادئ الأمر نادراً أي في خلال الدولة القديمة ولكن لما كان المصري يعتقد أنه سيحيا حياة أخرى في قبره، حصر كل همه مدة حياته في جمع ما تيسر له من أثاث ثمين وحلي نفيس لبضعه معه في مقره الأخير. ومن ذلك نشأ حب الأحياء للإغارة على قبور الموتى، وانتزاع كل ما تحويه من ذهب ليتمتعوا به في حياتهم أو يضعوه في قبورهم. ولما انتشر هذا الداء في أنحاء البلاد أخذ المصري يفتن في إخفاء مكان الدفن.

والسبب في هذا أن العقائد الدينية عند المصريين القدماء وما كانت تقتضيه من أوضاع خاصة بالدفن أصبحت تنم عن مكان المتوفى مهما يولغ في العمل على إخفائه. فكان لزاماً على المصري عند تشييد مقبرته، أن يجعل لها باباً وهمياً أو بابين أو ثلاثة على قدر عدد الموتى الذين كانوا يدفنون معه في المقبرة. وخلف هذه الأبواب كانت تقع حجرات الدفن التي يبالغ في الافتنان في إخفائها وإقامة العقبات العسيرة للوصول إليها بطرق تنحصر فيما يأتي:

أولا: كان ينحت في الصخر خلف الباب الوهمي بئر بعيدة الغور قد يصل عمقها أحياناً نحو أربعين متراً. وفي نهايتها تحفر حجرة الدفن

شرقاً أو غرباً شمالاً أو جنوباً بحسب الأحوال وبعد الدفن يبني باب هذه الحجرة بناء محكماً، ثم يسد بقطعتين أو ثلاث من الحجر الجيري تلحم بنوع من المونة متين شديد التماسك، ثم تمطر البئر بنفس الأحجار الصغيرة الناجمة من نحتها في الصغر وتبنى الفوهة بأحجار غليظة يصعب رفعها.

ثانيا: كان ينحت تحت الباب الوهمي ممر منحدر يؤدي إلى حجرة الدفن الواقعة وراءه وبعد ذلك يسد هذا المنزلق بكتل حجرية ضخمة.

ثالثاً: كان يحفر منزلق خارج المقبرة في جهة غير الجهة التي فيها الباب الوهمي غير أن حجرة الدفن كانت في النهاية تقع خلف الباب الوهمي الخاص بها كما كان الحال في مقبرة "عنخ حاف"، ومقبرة "نى كاؤوحور" بمنطقة أهرام الجيزة في الدولة القديمة. وهذه الطرق الثلاثة كان يعرفها قدماء المصريين ومن جاء بعدهم في العصور المتأخرة. اللهم إلا الطريقة الأخيرة فقد كانت تخفى عليهم أحياناً. لذلك لا نجد من هذه المدافن إلا النادر اليسير لم تمتد إليه أيدي العابثين، ولقد ساعد هذا الأمر المنقبين في عصرنا هذا على معرفة حجرة الدفن بسهولة.

ولما وجد أن طرق إخفاء مكان الدفن أصبحت غير مجدية، أخذوا يتوسلون بالاعترافات التي كانوا يكتبونها على الجدران لعدم نبش قبورهم. فمثلاً نجد في بعض المقابر ما يشعر بإشفاق الميت من نبش قبره واقتحامه. فيقول الميت إنه لم يظلم أحداً، وإنه بنى قبره من ماله الخاص، وإنه دفع لكل عامل أجره وإنه تلقاء هذا يرجو من الأحياء ألا يدنسوه أو ينتهكوه.

وقد وصلت إلينا ورقة بردي فيها تحقيقات عملت ضد نابشي القبور ولهذا عهد بالمحافظة على قبور السلف في طيبة– خلال الدولة الحديثة– إلى حاكم المدينة، فكان يعمل تفتيشاً عاماً كل سنة عن مقابر الملوك، حتى إذا وجد أن هناك عبثاً بأحدها، قام الحاكم بالبحث عن الجناة وعاقبهم عقاباً صارماً. غير أنه لما ساءت الحال وكثرت السرقات افتن الملوك والأمراء في إخفاء مقابرهم، حتى قيل إن الملك عندما كان يريد نحت مقبرة له في جوف الصخر في وادي الملوك كان يستخدم في نحتها وتشييدها فريقاً من الأسرى بحراسة بعض الكهنة، فإذا ما أتموها أمر الكهنة بقتلهم كيلا يفشوا السر وتصبح المقبرة عرضة لعبث اللصوص. على أن هذا كله لم يقم عثرة أمام مهرة اللصوص الذين استطاعوا الوصول إلى جميع مقابر الملوك والعظماء من رجال الدولة حتى مقبرة "توت عنخ آمون" نفسها. فلما رأى ملوك الأسرة الحادية والعشرين ما حل بأسلافهم أصحاب الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، نقلوا جثثهم وما ابقته يد العابثين من مخلفاتهم في مخبأة بعيدة عن أيد نابشي القبور في البقعة المسماة الآن بالدير البحري، وفيها لبثت هادئة مطمئنة إلى أن جاءت عصابة من أسرة عبد الرسول بالأقصر سنة ١٨٧٩ وعثرت على هذا المخبأة، فكانت هذه العصابة سبباً في الكشف عن جثث فراعنة الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وما أبقى عليه اللصوص القدماء من أثاثهم المأتمي. وقد بقى سر هذا الكشف خفياً مدة حتى ظهرت منه أشياء عرضت للبيع في أسواق العالم، ويعد عراك شديد بين هذه العصابة ومصلحة الآثار اعترفت

بمكان المخبأة فكانت أكبر صفقة للتاريخ والعلم.

ومنذ ذلك العصر أعني النصف الثاني من القرن التاسع عشر– أخذت عناصر البحث العلمي عن الآثار المصرية تتكون شيئاً فشيئاً، وبخاصة بعد أن مضى علماء المصريات يحلون رموز اللغة المصرية القديمة مقتفين أثر شمبليون ويدرسون ما نقش على كل أثر من الرسوم وقيمة كل منها، سواء أكان من الذهب أم من الحجر. وحينذاك بدأ الباحثون عن الآثار، لا يعنون بالذهب وحده، بل اتجهت عنايتهم إلى شيء يجذب النظر لحسن صنعه أو جماله الفني.

ذلك بأن العلماء كانوا قد بدءوا يفهمون اللغة المصرية القديمة، وأخذوا يتذوقون جمال الفن المصري. أما العامة من الباحثين عن الآثار فقد عرفوا ما يتطلبه مشتري الآثار المصرية والإتجار بها من الدقة والمهارة حتى إن بعضهم حذق حذقا كبيراً فتراه يحدثك عن الفن المصري والتماثيل المصرية فنظن أنه على نصيب من العلم، في حين هو يجهل اللغة المصرية القديمة جهلاً كاملاً.

والآن نعود إلى سياق حديثنا في الكلام عن الطريقة العلمية التي انتهجها السير فلندرز بيتري في البحث عن الآثار المصرية. فهو يعتبر بحق في طليعة العلماء الذين قاموا بالبحث العلمي عن الآثار وهو أول من رسم طريقة تخطيط الأماكن التي حفرها وتبيين موقعها بالنسبة للمكان الذي وجدت فيه، ثم موقعها بالنسبة لخريطة مصر العامة. وكان أول من استخدم التصوير الشمسي في رسم الأشياء المكشوفة في

مكانها. أضف إلى ذلك أنه كان يركن إلى عالم جليل في اللغة المصرية القديمة لنقل النقوش التي تظهر عند كشفها مباشرة. أما أعظم خطة انتحاها فهو أنه كان يسجل كل قطعة أثرية يعثر عليها ويصفها وصفاً دقيقاً ويذكر المكان الذي وجدت فيه وبدون كل هذا في سجل خاص مبيناً فيه موضعها من التاريخ المصري، مستنبطا ذلك من النقوش التي توجد معها. كذلك أمتاز على غيره ممن سبقوه بأنه كان مزوداً بمساعدين يعاونونه في عمله، بطريقة نظامية توزيع الأعمال كل بحسب اختصاصه. فكان لتخطيط الأماكن مهندس، وللتصوير الشمسي فني، ولرسم المناظر رسام. كل هذا سهل عليه أن يضع تقريراً ضافياً عن عمله السنوي. ولهذا فهو يعتبر بحق أنه أكثر علماء الآثار منتوجاً أثرياً في أقصر وقت ممكن. ولقد ساعده على بلوغ هذا المأرب أمران: الأول نشاطه المقطوع النظير، ووفرة المال. وقد أمدته "جمعية البحث والتنقيب عن الآثار المصرية" بكل الأسباب التي مهدت له سبيل الظفر والنجاح. وهي جمعية أسسها هو في إنجلترا واشترك فيها هواة الآثار المصرية في كل أنحاء العالم. فكان يعمل لشعبه ولغيره من الشعوب الأوربية، ولم يكن تابعاً لحكومة ما.

وعند ختام القرن التاسع عشر وفي باكورة القرن العشرين، ظهر العلماء الألمان والأمريكان والطليان في ميدان البحث عن الآثار المصرية، فادخلوا بعض التحسينات على طرق البحث العلمي، وبخاصة في تدوين كتبهم عن الآثار المكشوفة. وكانت منطقة أهرام الجيزة أهم ميدان للعمل والتنافس بين أبناء هذه الأمم الثلاث، فقسموها إلى ثلاث

مناطق: اختص الأمريكان منها بالجزء الواقع خلف هرم خوفو وكذلك المساحة الواقعة غرب هرم منقرع أما الجزء الأوسط والمساحة التي شرق هرم خفرع فكانت من نصيب الألمان. كما اختص الإيطاليون بالقسم الجنوبي الغربي من هرم خوفو.

وفي سنة ١٩١٢ اقتسم الألمان نصيبهم مع النمسويين، ولم يمض عام ١٩١٤ حتى تخلى الإيطاليون عن نصيبهم، ولم يستمر في الحفر خلال سنى الحرب العظمى غير الأمريكيين.

وبعد نهاية الحرب أعادت مصلحة الآثار تقسيم المنطقة ثانية فأعطت النمسا مساحة منها تقع جنوبي هرم خوفو وغربيه، واستوهت جامعة "هارفارد" على جزء من منطقة الإيطاليين. أما المساحة الواقعة غربي أبي الهول وجنوبيه فقد احتفظت بها مصلحة الآثار لنفسها، ثم سلمتها إلى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٩. على أن ما أدخله الأمريكان والألمان من التحسينات في طرق البحث العلمي عن الآثار المصرية في هذه المنطقة، يعد بحق خطوة جديدة في هذا المضمار. وإذا كان هناك عالم يجدر أن نطلق عليه لقب أثري مصري فهو بحق الأستاذ "هرمان يونكر" فقد تجمعت فيه كل الصفات والمميزات التي ينبغي أن تتوافر في عالم المصريات. وهنا أقف برهة لأحدثكم عن أحدث الطرق العلمية في الكشف الأثري وهي التي اتبعها يونكر في أعمال حفره لحساب جامعة فينا، وكان لي الشرف أن تتلمذت له مدة عام قبل أن أتصدى لإدارة حفائر الجامعة المصرية. ولفهم الموضوع يجب علينا أن نقسم هذا الباب إلى قسمين:

١– الهيئة القائمة بالعمل.

٢– طريقة الحفر.

الهيئة القائمة بالعمل

أولاً: المدير– يجب أن يكون ملماً باللغة المصرية القديمة وأنواع كتاباتها في العصور المختلفة، حتى يستطيع أن يتبين في الحال تاريخ عصر الأثر الذي يعثر عليه. وأن يكون عالماً بعض الشيء بعلم طبقات الأرض حتى يمكنه أن يعرف أنواع الأحجار التي تقع تحت نظره، وكذلك نوع التربة التي يقوم بالحفر فيها. وأن يكون له بعض العلم بالتشريح لكيلا يرتكب أخطاء جسيمة في معرفة أصحاب المقابر التي يعثر عليها. وأن تكون له دراية بمبادئ علم الكيمياء حتى يمكنه أن يحفظ بعض الآثار المعرضة للتلف عند الكشف. وأن يكون قد درس تاريخ المعمار المصري درساً وافياً، حتى إذا كشف عن بناء مصري أصبح من اليسير عليه أن يعرف تاريخه من شكل بنائه، فضلاً على ما فيه من الآثار. أضف إلى ذلك كله أن يكون قد توافر على دراسة الفن المصري في كل عصوره، وأن تكون له ثقافة واسعة النطاق تمكنه من أن يقرن المكتشفات المصرية بغيرها من مكتشفات الأمم المجاورة.

ثانياً: المساعدون– يجب أن تتوافر أكثر هذه المؤهلات في المساعدين الفنيين حتى إذا غاب الرئيس كان في مقدور مساعديه أن يحلو محله. ثم يجب ألا يستبدل المساعدون بغيرهم في خلال العام، بل يحسن أن يكون المساعد دائماً حتى يمكنه أن يقوم مقابر المدير،

وأن يكون أهلاً لأن يتولى كراسة "قيد الآثار" وكرامة "اليومية" ولأن يشرف على أعمال الرسم والمساحة والتصوير.

ثالثاً: المهندسون– يلزم للقيام بالحفر الأثري مهندس معماري يقوم برسم كل ما يكشف عنه ويأخذ مقاساته. على أن يساعده في ذلك فئة من مهندسي المساحة. وهذا لا يغني المهندس المعماري عن الإلمام بفن العمارة المصري. وكذلك يجب أن يعلم شيئاً عن الديانة المصرية القديمة.

رابعاً: الرسامون– ثم يلزم أن يكون هناك رسام يشف النقوش التي تظهر على الجدران المكتشفة ثم يوقعها على لوحات بالحجم الطبيعي. ومن ألزم ما يلزم لهذا الرسام أن يعرف أحرف اللغة المصرية القديمة وعلاماتها، وكذلك أنواع المناظر التي تتكرر. ويجب أن يكون له مساعد أو أكثر ينقل المناظر بالألوان، وهذا يجب أن يكون ملماً بدقائق الفن المصري القديم.

خامساً: المصور– وكذلك يجب أن يكون هناك مصور شمسي مجهز بكل المعدات اللازمة له في المكان الحفر نفسه، كي يكون على استعداد لأخذ صورة أي أثر يظهر في حينه.

سادساً: العمال– كمان للسير فليندرز بيتري الفضل الأكبر في تدريب عمال من أهل الصعيد وبخاصة من بلدة قفط. وهم ما يزالون إلى الآن أكبر عدة يعتمد عليها كل أثري يريد أن يحصل على نتائج علمية دقيقة في عمله. والحق أنهم فضلا عن دربتهم في أعمال الحفر شديدو الجلد كثيرو الصبر يتحملون مضاضة العمل بعيداً عن أهلهم مدة طويلة.

وينقسم هؤلاء العمال إلى طائفتين:

طائفة مهرت في تنظيف الجدران المنقوشة وإخراج الآثار من مكانها بكل دقة وحرص كما يتمتعون بحظ وافر من الإتقان في تتبع الجدران ومعرفة اتجاهاتها، ويندر أن تخطئ فراستهم وهم يستعملون فؤوسهم بمهارة وخفة. ومن العجيب أن الواحد منهم عندما تحس فأسه بوجود أثر سمين تحتها كتمثال أو فخارة تنكمش يده وتبرق عيناه ويلقي بفأسه ويستعمل يده في إخراج ذلك الأثر أو يقف عن العمل برهة ليبلغ مدير العمل أو مساعدة. ومن هذه الفئة بعض أفراد قليلين حذقوا الكشف عن الجدران المبنية باللبن وهي من أدق عمليات الحفر وأصعبها.

أما الطائفة الثانية فتنحصر ميزتهم في قواهم الجسمانية. فمنهم من يشتغل بالفأس والمقطف في حفر الآبار الموصلة لحجرات الدفن وغير ذلك، ومنهم من يشتغل بالكريك لملء العربات وهؤلاء يحتاجون إلى مجهود جسماني عظيم. وإلى جانب هؤلاء تعمل طائفة ثالثة من أهل الوجه القبلي، والبحري بحسب مكان الحفر، وينتخبون من أهل القرى المجاوزة لمكان الحفر بأجور ضئيلة ويشتغلون إما في حمل المقاطف أو دفع العربات المحملة بالأتربة.

على أنه من الواجب أن يكون في مكان الحفر حداد لإصلاح العربات التي يصيبها عطب أثناء العمل، وأن يكون هناك عامل خاص يقوم بتركيب قضبان السكة الحديدية وملاحظتها طول اليوم. ولابد من وجود نجار لإصلاح الفؤوس والكريكات وعمل السلالم لآبار والثقالات

وعمل عروش للحجرات المنقوشة المعرضة للشمس الخ.

ويكون على رأس هؤلاء العمال رئيس ذو شخصية قوية وله دراية بأعمال الحفر. وبكل هذه المعدات يتمكن العالم الأثري أن يبدأ حفره بشيء كبير من الطمأنينة والثقة. فإذا أراد أن يكون عمله منتجاً وجب عليه أن يقيم في وسط عماله هو ومساعدوه بقدر ما تسمح له ولهم الفرص. ولابد إذا اضطره الحال للانقطاع عن مباشرة العمل أن يحل محله مساعدوه الذين يجب عليهم أن يتناوبوا الإشراف على العمل ليكونوا على علم تام بكل جديد.

طريقة الحفر

من البديهي أن العالم الأثري عندما يريد الحفر في مكان معين، لابد أن يكون قد رسم خطة للعمل وأن تكون قد تهيأت له أسباب حملته على اختيار هذا المكان دون سواه. فهو إما يريد أن يكشف عن جبانة أو بلدة أو معبد يرجع تاريخه إلى عصر من عصور التاريخ المصري الثلاثة: القديم والمتوسط والحديث. ولكل من هذه الأمكنة القديمة طريقة خاصة تتبع في الكشف عنها. وسأحصر بحثي عن طريقة الحفر في منطقة أهرام الجيزة التي جمعت بين الجبانة والبلدة والمعبد، ويرجع تاريخها إلى المملكة القديمة أي منذ نحو ٥٠٠٠ سنة.

أما الجبانة، أي مدينة الموتى، فكانت لا تختلف عن مدينة الأحياء في شيء إلا إن الأولى كانت تقام من الحجر أو تنحت في الصخر، في حين أن الثانية كانت تبنى من اللبن.

ولهذا بقيت مدينة الموتى حافظة لكثير من صورتها الأصلية لمتانة تكوينها. وأما مدينة الأحياء فلم يبق منها إلا الأسس وبعض جدران مرتفعة بعض الشيء. فمن أراد أن يكشف عن جبانة قديمة يجب أن يتصور أولاً أنه يكشف عن مدينة للأحياء. وسأضرب لكم مثلاً: فإننا عندما أردنا البدء في التنقيب كان أمامنا الطريق العمومي الموصل ما بين الهرم الثاني ومعبد الوادي بجوار أبي الهول، وكان هذا الطريق يعد من أعظم شوارع مدينة الموتى. فلابد إذاً من أن تكون البيوت القائمة على جانبيه مملوكة إما لأفراد من الأسرة المالكة، وإما لإناس من علية القوم. وقبل أن نبدأ عملنا، كان الكونت دي جلارزا قد كشف مقبرة أم الملك خفرع التي تقع في الجهة اليمنى للسائر من معبد الوادي نحو الهرم الثاني. وكان قد كشفها عفواً بينما كان يبحث عن كنز، فكانت نظريتي أن المقبرة الملاصقة لهذه المقبرة هي من غير شك لفرد من رجالات مصر في عصر القديمة. وتحت تأثير هذا الاعتقاد افتتحنا موسم العمل.

ففي اليوم الأول مددت السكة الحديدية واخترت المكان الذي ستلقى الرمال فيه، وكان بعيداً عن المكان الذي قصدنا كشفه. وفي اليوم الثاني أخذنا في التنقيب. وهنا أريد أن ألفت نظركم إلى طبقات الأتربة التي تكسو هذه الجبانة. فهي أولاً طبقة من الرمل الناعم. ويختلف سمك هذه الطبقة باختلاف انخفاض المكان أو ارتفاعه. وبعد هذه الطبقة الرملية طبقة أخرى من الأحجار الصغيرة والحصى مختلطة بالرمال والطين الأسود. ويختلف سمك هذه الطبقة باختلاف عمر المباني التي تحتها، وبعد إزالة تينك الطبقتين تظهر المباني القديمة. ولإزالة الطبقة

الأولى يشتغل رجال الكريك، وفي الثانية يشتغل رجال الفأس والمقطف. أما عند الوصول إلى الأبنية والجدران فإن نفراً خاصاً من أهل فقط يقومون بالكشف عنها بكل تؤدة وانتباه. ولم تمض بضع ساعات على بدء العمل حتى ظهر جدار ضخم، فتتبعناه برفق وتؤدة. وبعد ذلك انكشفت أمامنا قطعة ضخمة من الحجر الجيري مكتوب عليها اسم "ر ع ور". وفي نفس اليوم كشفنا عن واجهة الباب وهي منقوشة وملونة بألوان ظلت ثابتة حتى وقتنا هذا فرسمت مكانها ونقلت نقوشها. فلما إن عثرنا على تلك الواجهة، تحققنا أن الباب لابد واقع خلفها.

وفي اليوم الثالث عثرنا على باب المقبرة منقوش على جانبيه اسم صاحبه "ر ع ور" وألقابه وأهمها لقب "الكاهن الأكبر للوجهين القبلي والبحري" ثم لقب مدير القصر الملكي. وبذلك تحققت نظريتي التي فرضتها من قبل، والتقطنا لكل هذا صوراً شمسية ثم نقلناها في كراسات خاصة ودونا كل ما حدث في كراسة هي كراسة اليومية. وأما ما كشف من القطع الأثرية الدقيقة فقد سجل في كراسة خاصة تسمى السجل، كما عهد إلى المختصين رسمها باليد وتصويرها بالآلة الشمسية. وعلى هذا سرنا في كشف النقاب عن هذه المقبرة حتى انتهينا منها. وكم كانت الدهشة عظيمة إذ بان لنا أنها أكبر المقابر التي عثر عليها إلى الآن في الدولة القديمة!. ثم انتقلت من هذه المقبرة إلى غيرها كما ينتقل الإنسان من بيت إلى آخر متبعاً نفس الطريقة الأولى. وفي الموسم الثالث من أعمال الحفر جاءت الفرصة عفواً لكشف مدينة الأحياء. وذلك أننا بعد تنظيف مقبرة "ر ع ور" وما جاورها من مقابر رجالات مصر في الدولة

القديمة، امتلأ المكان الذي عيناه لتفريغ الأتربة حتى ضاق عن أن يسع أكثر مما نقل إليه منها، فأخذنا نبحث عن مفرغ آخر خال من الآثار فكان أمامنا في الجهة الجنوبية الشرقية مكان منبسط فسيح مغطى بالرمال بجوار المقابر الحديثة الخاصة ببلدة نزلة السمان. وكان منظر هذا المكان يشعر بأنه خلو من الآثار. ولكن خوفاً من الوقوع في الخطأ، امتحنا هذه البقعة في ثلاثة أمكنة بعيدة بعضها عن بعض، وف يكل منها أسفر البحث عن وجود أبنية باللبن. وهنا رجح عندي أحد احتمالين: فإما أن نكون أمام معبد، كما هو الحال في معبد الملك منقرع الذي بني من هذه المادة عينها. وإما أن نكون أمام مدينة قديمة. غير أن وقوع هذه المباني في الجهة الشرقية للبناء المطمور بالرمال والأتربة، وهو الذي كانت تسميه العامة فرن أبي الهول، وذكره العالم الأثري ريزنر في كتابه "مكرنيوس" المطبوع سنة ١٩٣١ بأنه هرم شيسكاف الذي لم يتم بناؤه بعد، جعل الشك يخامرني في أنه هرم ناقص كما يقول الأستاذ ريزنر. غير أني رجحت أن تكون هذه الأبنية هي معبد الوادي القائم أمام الهرم، وحينئذ يصبح فرن أبي الهول وهرم شبسكاف الذي لم يتم بناؤه في الواقع هرم تام لو لم يعبث الزمن بجزئه العلوي. فكان أول علمنا أن تركنا هذه المباني التي بالطوب الأخضر جانباً وحصرنا همنا في إماطة اللثام عن هذا البناء المطمور في الرمال. فلم نلبث بعد عدة أيام حتى وجدناه هرماً ووجدنا أن صاحبته ملكة تدعى "خنتكاوس" وكانت أول ملكة حملت لقب ملك الوجه القبلي والبحري. ثم أعدنا الكرة على الأبنية المقامة باللبن لنكشف عنها، فاتضح أخيراً أنها مدينة للكهنة، وليس

معبداً للوادي كما خيل إلينا. وهنا لفت نظري للمرة الثانية أمر عاينته من قبل، هو أننا عند الكشف عن هذه المدينة كانت الطبقة العلوية تتركب من رمال ناعمة، وطبقة ثانية تتركب من طين الجدران المهدمة، وطبقة ثالثة ظهرت بها أساسات المباني المقامة باللبن. وكان ارتفاع ما ظل قائماً منها يتراوح بين ١٠سم و٢,٥متراً. وبعد تمام الكشف عن جزء كبير منها، حصرنا همنا في البحث عن معبد الهرم الرابع.

لما كانت البحوث التاريخية قد أثبتت لنا أن خنتكاوس ليست سوى "نيتوكريس" التي تكلم عنها هيرودوت وقال أنها هي التي أكلمت هرم أبيها الفرعون منقرع، خطر لي أن معبد الوادي التابع لها، لابد وأن يكون بجوار معبد أبيها الذي اكتشفه ريزنر سنة ١٩١١- فأخذنا نبحث عن الطريق الموصل إلى هذا المعبد، وإذا بنا نعثر أثناء البحث على بحيرة مقدسة تجري إليها المياه من مجرى منحوت في الحجر تحت الأرض. ولما اقتفينا أثر هذا المجرى لنتبين المنبع الأصلي الذي ينبع منه الماء، عثرنا على بئر منحوتة في الصخر كان ينصب منها الماء إلى فوهة المجرى. وهنا تحققنا أن هذه البحيرة لابد وأن تكون ملحقة بمكان مقدس خاص، فدأبنا على العمل للوصول إلى هذا المكان، وبعد عدة أيام تحرينا في أثنائها الطمأنينة والدقة في البحث، بلغنا ما أردنا، فكشفنا الطريق المؤدي إلى المعبد ثم وصلنا بالفعل إلى المدخل وكشفنا المعبد. غير أن فناءه الكبير كان قد شغل فيما بعد بمساكن قروية من مدينة الأحياء. وهذا عين ما حدث في فناء معبد منقرع. ولابد لنا من إزالة هذه المساكن برفق وهوادة بعد رسمها، لنكتشف الجدران الأصلية للمعبد

وهي ما تزال محفوظة من غير شك، إذ أن الذين استعملوا المعبد مسكناً لهم، قد جعلوا أبنيتهم فوق الأنقاض دون أن يحفروا أسساً عميقة، كما هو الحال في منازل مدن الأهرام التي نحن بصدد الكشف عنها الآن، إذ نجد طبقتين من المباني أقيمت أحداهما فوق الأخرى، أما الطبقة السفلى فهو البناء الأصلي القديم الذي أندك بعد أن أتى جيل آخر من الناس بني فوقه.

وفي الختام أرى أن الطريقة المثلى للكشف عن الآثار المصرية القديمة يجب أن تكون بريئة من الجري وراء العثور عن الكنوز من ذهب وتماثيل وما إليها، بل يكون غرضها الأسمى إماطة اللثام عن الفجوات الناقصة في التاريخ المصري القديم، وإظهار ما كان لبلادنا من حضارة وفن وثقافة. وذلك بكشف الأماكن الأثرية كشفاً علمياً وإثبات كل ما وجد فيها من نقوش وقطع فنية وأثاث منزلي ومناظر. وهذه هي الكنوز الحقيقية.

......

(*) مجلة الهلال – مايو – **١٩٣٤**

مصر وأصل المصريين (*)

مصر وطننا العزيز، تعد بلا نزاع أقدم أمم العالم، وهي تكوِّن الجزء السفلي لوادي النيل، وتحد بالشلال الأول جنوبًا، والبحر الأبيض المتوسط شمالًا، والصحراء العربية شرقًا، وصحراء لوبيا غربًا، وقد كان يطلق عليها قديمًا اسم «كمي» وقد بقي محفوظًا إلى أن جاء الإغريق فأسموها «أجبتيوس»، ولم يفسر أصل اشتقاق هذا الاسم تفسيرًا شافيًا إلى الآن، وأفضل هذه التفاسير «حا–كا–بتاح» أي مكان نفس الإله بتاح. الذي كان يعبد في بلدة منف عاصمة الديار المصرية في عهد الدولة القديمة، ولفظة «كمي» معناها الأرض السوداء، وكانت تطلق على الوادي الخصب المنزرع، أما الأرض التي كانت تحيط به من الشرق والغرب فكانت تسمى «تا–دشر»، وتعني بالمصرية البلاد الحمراء أي الصحراء، ولا شك أن مصر مدينة بحياتها لنهر النيل، وقد أصاب المؤرخ «هيرودوت» عندما قال — نقلًا عن المؤرخ «هيكاته» الذي عاش في عهد بطليموس الأول: «إن مصر[1] منحة النيل.» والواقع أن هذا النهر العظيم يفيض على البلاد بخيره العميم طول العام؛ إذ إن الرشح الذي يتسبب من مائه يمد الطبقة المائية التي تحت الأرض وهي التي لا مندوحة عنها لنمو النبات وتغذيته أثناء التحاريق. أما فيضان النيل السنوي فإنه يكسب الأرض خصبًا ونماء بالغرين الذي يجلبه معه كل عام، ويتركه على سطح الأراضي المنزرعة لنمو الأشجار والنباتات

والحيوان، ومن ذلك نرى أن البلاد المصرية بدون نهر النيل تصبح صحراء قاحلة، والحياة فيها مستحيلة، وبخاصة عندما نعلم أن الطبيعة قد حرمتها ماء الأمطار تقريبًا، وجعلتها ترزح تحت عبء شمس محرقة مدة طويلة من السنة.

ولذلك فإن القوم البائسين الذين يسكنون الجهات القاحلة (أي الأرض الحمراء) كانوا يعيشون في شطف من العيش فيتصيدون حياتهم مما تنتجه الأمطار الضئيلة التي كانت تجود بها السماء من وقت لآخر، ومن بعض الآبار القليلة المبعثرة في أنحاء تلك الصحاري المجدبة، وعلى ذلك كان المصريون الذين يعيشون في رغد من العيش في وادي النيل اليانع ينظرون إلى هؤلاء القوم نظرة ازدراء، ويعدونهم همجًا.

ولما كان المصريون القدماء يعتقدون أن النيل يستمد ماءه من صخور الشلال الأول عند أسوان و«الفنتين»، فإنهم كانوا يعدون كل البلاد الواقعة جنوبي هذه الصخور بلادًا أجنبية عن مصر تمامًا، وقد كانت مصر مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال إنه نشأ من البلاد نفسها أي أفريقي الأصل، وينسب إلى لوبيى أفريقيا الشمالية المسمين الآن بالبربر، وإلى السكان الحاميين من أفريقيا الشمالية الشرقية «الصوماليين» ولا مراء في أن الحاميين المصريين يمثلون أقدم مدنية معروفة في وادي النيل، وعلى ذلك تكون مصر جزءًا من مجموعة المدنيات الحامية الأفريقية الأخرى، غير أنه عند نهاية عصر ما قبل الأسرات نجد بعض التغير أخذ يدخل على هذا الشعب الحامي الجنس الناشئ من طبيعة البلاد نفسها، والظاهر أن هذا التغير جاء عن

طريق الهجرة. وأهم العناصر الجديدة التي دخلت البلاد يظهر أنها من أصل آسيوي، وكانت لها مميزات خاصة تختلف اختلافًا بيِّنًا عن الشعب الأصلي، وهؤلاء الآسيويون قد اختلطوا شيئًا فشيئًا بالسكان الأصليين واندمجوا فيهم.

أما موضوع دخول هذه القبائل الآسيوية إلى مصر والجهة التي دخلوا منها البلاد واستولوا عليها والعصر الذي دخلوا فيه بالتحديد، فإنها أشياء لم يجمع فيها العلماء على رأي قاطع، فمن قائل إن المهاجرين أو الفاتحين جاءوا إلى مصر من شبه جزيرة بلاد العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة «قفط»، أو عن طريق أعالي وادي النيل. ومن قائل إن الغزاة أتوا من سوريا، ودخلوا مصر عن طريق فلسطين فسينا فشرقي الدلتا، ومن ثم انتشروا في الدلتا الغربية ثم الوجه القبلي، ومن هنا تظهر أمامنا مشكلة عويصة لم يمكن حلها إلى الآن، وهي هل المدنية المصرية الفرعونية نبتت في الشمال أم في الجنوب؟ أي هل الحضارة المصرية بدأت في الدلتا أم في الصعيد؟

والواقع أن هناك حججًا تعزز كلًّا من النظريتين، فإن الذين يميلون إلى الرأي القائل بأن القوم النازحين أتوا من الجنوب، فذلك لأن كل معلوماتنا عن هذا العصر السحيق مستمدة فقط من بعض حفائر عملت في الوجه القبلي، مع أن هناك مناطق أثرية أقدم من تلك واقعة في الدلتا، ولم يكشف علميًّا إلا عن بعضها منذ زمن قريب جدًّا كمنطقة المرمدة، ولم تعطنا كل المعلومات التي يجب أن نستند عليها في تكوين رأي قاطع.

وكذلك نجد أن عبادة الإله «حور» الذي كان يعد من أقدم المعبودات المصرية، قد دخلت مصر من الجنوب عن طريق بلاد النوبة، أو أعالي وادي النيل أو بطريق وادي حمامات عقب غزو القوم المسمين على الآثار «أتباع حور» كما يزعم بعض المؤرخين، على أننا من جهة أخرى نجد أن بعض المميزات البارزة في تكوين الديانة المصرية ونموها قد ظهرت في الوجه البحري، فمثلًا نرى أن أشهر العبادات التي انتشرت في طول البلاد وعرضها تدريجًا هي عبادة الإله «أوزير»، ويرجع أصلها إلى بلدة «أبو صير» القريبة من سمنود وعبادة إله الشمس «رع» ويرجع أصلها إلى بلدة عين شمس القريبة من القاهرة. يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من بلاد الوجه القبلي كانت تسمى بأسماء مدن مأخوذة من الدلتا أقدم منها، وعلى ذلك يكون من المحتمل جدًّا أن الجنس الجديد قد زحف على البلاد من شمالي سوريا عن طريق فلسطين وسينا، وأحضر معه مدنية أرقى من مدنية الجنس الأصلي الحامي الذي لم يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية. أما الغزاة أو النازحون، فيقال إنهم أدخلوا في البلاد معرفة المعادن وبخاصة النحاس، وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية، ولا شك في أن دخول هذا الجنس إلى البلاد قد أتى تدريجًا من غير عنف، ومهما تكن الحقيقة في أمر هذا الجنس الجديد فإن هناك أمرًا ثابتًا، ذلك أن النزلاء قد توصلوا إلى الاستيلاء بنجاح على البلاد شيئًا فشيئًا، وأهم الوثائق التاريخية التي وصلت إلينا من هذا العهد هي الألواح الإردوازية المنقوشة، وقد وصلت إلينا هذه النقوش على أشكال مختلفة، ومن

الصعب الاهتداء إلى حلها، على أنها هي الذكرى الوحيدة لدينا لهذا الفتح الطويل، الذي كانت نهايته على ما يظهر اتحاد كل البلاد من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط تحت صولجان ملك واحد، وقد اتفقت كل المصادر التاريخية على أنه هو الملك مينا.

ومما لا جدال فيه أن العلاقة بين مصر في أقدم عهودها وبين آسيا كانت موجودة، غير أنه لا يلزمنا أن نبالغ في أهمية انتشار الجنسية الآسيوية في مصر؛ إذ الواقع أن حضارة البلاد من أساسها أفريقيا، ولذلك نرى أن الجنس المهاجر اندمج على مضي الزمن في أهالي البلاد، وبذلك نجد اللغة والزراعة والديانة التي نمت وترعرعت في البلاد مصبوغة بصبغة أهلها الأصليين منذ أقدم عهودهم، ولم يؤثر النازحون في تغيير شيء كبير منها، بل كان كل تأثيرهم سطحيًّا، ومع ذلك فإن ما لدينا من المعلومات عن هذا العصر لا يسمح لنا بأن نجزم بشيء، هذا ويجب أن نتخيل أن النازحين لم يكونوا إلا عددًا ضئيلًا بالنسبة إلى السكان الأصليين؛ إذ الواقع أن الفئات النازحة المسيطرة كانت تلبس المدنية التي وجدتها زاهرة في البلاد مع إدخال بعض إصلاحات وتحسينات عليها بقدر الإمكان.

على أنه ليس لدينا من المعلومات ما يثبت لنا إذا كانت المدنية المصرية مدينة للآسيويين الفاتحين بإحضار الحيوانات المنزلية كالثور والخنزير والحمار والماعز، وكذلك باستحضار أقدم الحبوب مثل الشعير والقمح، أو أنه بالعكس كانت هذه الحيوانات والحبوب قد وجدت في وادي النيل منذ وجد الجنس الأفريقي الأصلي، وكذلك لا نعرف إذا

كانت لغة القبائل النازحة قد أثرت في اللغة المصرية القديمة ومسحتها بمسحة آسيوية، وهي التي نجد ظواهرها في عدة ألفاظ في لغة القوم، ومنذ بداية العصر التاريخي نجد الاندماج بين الجنسين المكون منهما السكان عظيمًا جدًّا، حتى إنه أصبح من الصعوبة بمكان أن نعرف بشيء من الدقة الفوارق بينهما.

....

(*) **موسوعة مصر القديمة – الجزء الأول**

العادات المصرية القديمة الباقية إلى الآن (*)

مصر صنيعة النيل هي بلد العجائب وأعجب ما فيها أنها لم يغيرها كر الغزوات وتغلب الدول والشعوب- فهي في وسط تلك التغيرات التي مرت عليها طوال أكثر من خمسة آلاف سنة لا تزال محافظة على تقاليدها وعاداتها القديمة. فهي كالبيضة محاطة بغلاف من الخارج قد لون بألوان مختلفة وضعها عليها الفاتحون من الخارج ولم يتمكنوا رغم طول الزمن واختلاف الأجناس البشرية التي توالت على حكمها منذ سنة ٥٢٥ ق. م. من تغيير شيء كثير من عاداتها وتقاليدها التي كونت منذ فجر التاريخ.

ومما يثير الدهشة ويبعث على العجب أن المصري برهن أنه أكثر شعوب العالم محافظة على عاداته ودينه وطرق معيشته بشكل يثير الإعجاب- فتراه منذ نشأته متمسكا بتقاليده في كل نواحي الحياة فإذا جاء شيء جديد لم يجعله يتخلى عن القديم بل يضيفه إليه دون أن ينظر على التناقض بين الجديد والقديم- وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم المتناقضات التي نجدها بين آونة وأخرى في عادات المصريين ومعتقداتهم الدينية ولا عجب إذاً أن نسمع كثيرين من الذين يدرسون التاريخ المصري القديم يلقون القول جزافا بأن الديانة المصرية القديمة معقدة وأنها طائفة من المتناقضات وأن المصري في أخلاقه وتصرفاته كان سلسلة أشياء متنافرة والسر في ذلك- كما ذكرنا- يرجع إلى أنه لم

ينس بل كان يجمع كل ما يحرزه من عادات وأخلاق وتغيرات دينية في صدره ويدونها دون أن يتخلى عن القديم ولو كان مناقضاً بعضه بعضا. والواقع أن الإنسان إذا أراد أن يدرس الحياة المصرية القديمة من كل نواحيها فلا بد من أن يتخذ طريقة علمية تمكنه من أن يسلك الباحث في ذلك طريقة تقسيم التاريخ المصري إلى عصور معلمه ويدرس كل عصر على حدته فمثلا إذا انتهى من درس عصر مصر فيما قبل التاريخ انتقل إلى عصر الدولة القديمة فيدون كل ما يعثر عليه من عادات وأخلاق إلى آخره ثم يقارن بين العصرين ومن هذا يمكنه أن يستخلص ما استجد من العادات منذ نهاية عصر ما قبل التاريخ. وإذا انتقل بعد درس الدولة القديمة إلى الدولة المتوسطة ودرسها من جميع نواحيها فإنه كذلك سيجد القديم على قدمه مضافا إليه أشياء جديدة قد تناقض كل المناقضة ما كان في عصر الدولة القديمة من الوجهة الدينية وطرق المعيشة– ومن المدهش في هذا الصدد أنك تجد المصري يتمسك بالقديم بدرجة غاية في التعصب فنجده مثلا في العصر الذي كثر فيه استعمال الآلات النحاسية يتمسك باستعمال الآلات المصنوعة من الظران محافظة على ما كان يستعمله أجداده في أقدم العصور– كذلك في معبوداته نجده يتمسك بالمعبودات التي كان يقدسها من أول فجر التاريخ. فإذا عبد معبودات أخرى لا يترك معبوداته الأولى بل يجمع بين الآلهة قديمها وجديدها وبذلك نجد أن الآلهة المصرية القديمة قد كثر عددها واختفى بعضها ببعض بطريقة جعلت التمييز بين صفات معبود وآخر من أصعب الأمور وأكثرها أشكالا. ولكن الذي يدرس التاريخ

المصري القديم بالطريقة التي أوضحناها قد يصل إلى نتائج باهرة وحل مسائل معقدة يظن الإنسان أنها من الألغاز التي لا يمكن الوصول إلى فكها. وفي الحق نجد أن عدم نسيان المصري ومحافظته على القديم قد أفاد التاريخ المصري وبخاصة الذين يبحثون في الحياة الاجتماعية عند قدماء المصريين ومقارنتها بالحياة العامة في مصر الحديثة إذ الواقع أن كل ما كان يحرزه المصري القديم من عادات وفن ودين إلى عصر الفتح الإسلامي قد سلمه برمته إلى مصر الإسلامية اللهم إلا اللغة والدين– على أن الأولى بقيت على قيد الحياة إلى أن اندثرت في أواخر القرن السابع عشر وأقصد بذلك اللغة القبطية. أما الدين المصري القديم فقد ظهر عليه الدين المسيحي لفظاً وشكلا والواقع أن معظم الطقوس الدينية في مصر الحديثة ترجع في أصلها إلى مصر القديمة كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد– وهي تعد في الدين الإسلامي بدعا ومن المدهش أننا نجد حتى في اللغة وفي التراكيب بعض ألفاظ وتعاريف مصرية محضة لا توجد في أي بلد من البلدان الإسلامية.

أما من جهة الجنسية المصرية فيمكننا أن نقول بنوع من التأكيد أن الجنس المصري كان ولا يزال أكثر شعوب الأرض محافظة على دمه وهذا الأمر قد يدهش الكثير من الناس ولكنه حقيقة ثابتة. وإليك البرهان. إذا بحثنا تاريخ الفاتحين الذين غزوا مصر في كل عصور التاريخ نجد أن هؤلاء الأقوام الذين هبطوا إلى بلادنا لم يقطنوا القرى بل كانوا يحتلون المدن الكبيرة فحسب. وهذه المدن كانت محصورة في عدد قليل ولذلك يجد الباحث في علم الأجناس البشرية أن فلاح مصر

متناسل من أجداده القدماء أما سكان المدن الكبيرة كالإسكندرية والقاهرة والمنصورة فاختلاط الأجناس سائد بينهم. ولما جاء الفتح العربي ودخل الغزاة مصر لم يختلطوا العرب بالمصريين وبقوا متباعدين عنهم وعاشوا في مصر وتناسلوا فيما بينهم إلى يومنا هذا. فمما سبق يتضح أن المصري في قريته لم يتغير دمه الفرعوني إلى الآن غير أن وجه الملابسة قد جاء من تغلب اللغة العربية على اللغة المصرية القديمة وقد وقع في هذا الغلط الفاحش كثير من العلماء والباحثين فنجد الرجل المثقف من الأجانب إلى الآن ينعت المصريين بالعرب فيقول بالفرنسية مثلا Les Arabes وذلك لأنهم يتكلمون اللغة العربية بدلا من اللغة المصرية التي اندثرت في أواخر القرن السابع عشر وقد جاء ذلك من تأثير الدين الإسلامي والقرآن الكريم، ولولا رسوخ الإسلام في البلاد ما بقيت اللغة العربية في مصر وبالرغم عن كل هذه المظاهر فإننا نجد بالبحث والمقارنة أن الحياة الاجتماعية وما تخلف عنها من العادات والأخلاق في مصر القديمة لا تزال باقية في مصر الحديثة حتى في أدق الأشياء وأكثرها حساسية ألا وهي العادات والطقوس الدينية وحتى التفكير الديني قد صبغ بصبغة مصرية قديمة. وسيتناول بحثنا هنا هذه العادات وطرق الحياة اليومية من كل نواحيها سواء أكانت دينية أم دنيوية وسنبدأ أولا بشرح بعض العادات المصرية القديمة الدينية التي لا تزال باقية في مصر الإسلامية إلى الآن وهي التي يعتبرها رجال الدين دخيلة على الدين الإسلامي وتحارب منذ ظهور الإسلام في مصر- غير أن المصري بطبعه لا يمكنه التخلي عنها لأنه ورثها عن أجداده وقد

اختلطت بدمه ولحمه وعقله وروحه وهو يرثها عن أبيه ويأخذها عنه ابنه على التوالي رغم العمل على القضاء عليها منذ ظهر الإسلام. وستبقى إلى ما شاء الله ما دام المصري حافظا لجنسيته ودم أجداده:

* * *

كان لقدماء المصريين آلهة كثيرة منتشرة في طول البلاد وعرضها في العصر التاريخي وقد بقيت هذه الآلهة إلى أن جاء الدين المسيحي ومحاها من البلاد جملة وقد بقي الكفاح شديدا بين الديانة المصرية والمسيحية إلى أن انقرض آخر أثر الديانة المصرية في أواخر القرن الرابع الميلادي على يد الإمبراطور "ثيودوسيوس" سنة ٣٨٠م غير أن بقايا الديانة المصرية ظلت متأصلة في عقائد القوم وأفكارهم ولما جاء الدين الإسلامي وقضى على المسيحية في معظم البلاد لم يمكنه أن يتغلب على بقايا المعتقدات المصرية واستمر الحال كذلك إلى يومنا هذا. وقد مكثت بقايا الديانة المصرية في أشكال مختلفة في ريف مصر وصعيدها وبخاصة في القرى التي لم تمسها أيدي الفاتحين والتي دخلها الإسلام ومن قبله المسيحية ولم يكن لها إلا تأثير ظاهر في عقائد العامة. والواقع لم يكن للمسيحية تأثير عظيم في ديانة القوم لأن أجلها لم يدم طويلا في البلاد وما بقى من العادات الدينية قد صبغ بالصبغة المصرية القديمة– وبقايا التراث الديني المصري القديم في مصر الحديثة ظاهر جلي في كثير من القرى والمدن في أشكال مختلفة منها

" * "

لما كان الشمس أعظم المعبودات المصرية القديمة منذ أقدم العصور التاريخية فقد ظلت تعبد إلى أن قضى على الديانة المصرية غير أن بقايا عبادتها لا تزال باقية في البلاد إلى يومنا هذا. وإليك بعض ما نجد في مصر الحديثة يشير إلى ذلك- "الحلف بالشمس" كانت الشمس أكبر المعبودات المصرية وكانوا يحلفون بها وقد بقيت عادة الحلف بالشمس في بعض القرى المصرية إلى الآن ففي بلدة سند بسط مركز زفتى نجد معظم العامة يقسمون القسم الآتي "وحياة الشمس الحرة" وكذلك في بلدة فرسيس يحلفون بالشمس قائلين "وحياة اللي تشوفني ولا أشوفهاش" إشارة إلى الشمس. أما في الوجه القبلي فيقسمون بالشمس بالكيفية الآتية "وحياة البهية عندما تطلع من جبلها" إشارة إلى الشمس عندما تشرف من جبل كان يعتقد المصريون في وجوده في الجهة الشرقية "ياخو".

***

وقد كان قدماء المصريين يتشاركون إلى الشمس ويحكمونها في أمورهم كما جاء في ورقة **Ordiney** وذلك أنه عندما راودت زوجة باتا أخاه الأصغر "أنوبس" وتعفف الأخير وشت به لأخيه الذي أراد قتله فطلب إليه الصغير أن ينتظر إلى مطلع الشمس ويجعل الشمس حكما بينهما أي يشكوان أمرهما لها. وقد عثرت بصفة غريبة على وجود ما يشبه هذه العادة في مصر الحديثة وذلك أن أحد أهالي أبو تيج كان ضيفا عندي ذات ليلة فقام مبكراً وحضر إلى حجرة نومي وأخبرني أنه حزين وقد بدت عليه علامات الانزعاج فسألته ما الخبر فطلب إلى أنه

يريد أن يصعد إلى سطح البيت قبل طلوع الشمس لأنه يريد أن يشكونّ أمره إليها لأنه رأى مناما مزعجا وسرعان ما صعد إلى سطح البيت وبعد نزوله وجدت على وجهه علامات السرور والارتياح وقد أخبرني بعد ذلك أنه قد ذهب ما كان عنده من الخوف بعد شكوى أمره إلى الشمس المشرقة.

ومن بقايا ذلك أيضا ما نجده عند الأطفال عندما تسقط سن من أسنان أحدهم فإنه يأخذ السن المخلوعة ويطلب إلى الشمس أن تبدلها بسن أحسن منها فالولد يقول "خدي سن حمار وهات سن غزال" أما البنت "خدي سن الجاموسة وهات سن العروسة".

***

ويعتقد العامة أن الشمس في قدرتها شفاء المريض بالحمى فإذا اشتدت وطأتها عليه فينصح له أن يستحم بالماء البارد عند غروب الشمس فإن حرارة الجسم تذهب مع حرارة الشمس- وهذه العادة لا تزال باقية إلى الآن في أبي جرج وجهات أخرى في مصر.

***

وكذلك يوصف للمريض بالحمى أن يربط له على طرف جلبابه جعران لتذهب عنه الحمى وتفسير ذلك أن الجعران عند قدماء المصريين كان يمثل الشمس في الصباح وهذه العبادة موجودة في كثير من قرى الوجه البحري وبخاصة في ميت ناجي مركز ميت غمر يضاف إلى ذلك أنه في كثير من قرى الفلاحين في الوجه البحري والقبلي نشاهد

أن الأفراد إناثا كانوا أم ذكورا يوشمون أذرعتهم بقرص الشمس الذي تخرج منه الأشعة وفي وسط القرص نرى نقطة صغيرة تمثل عين الشمس نفسها ويقال أن القوم يضعون ذلك منعا للحسد فبدلا من أن يشاهد الإنسان جمال الذراع يلتفت إلى الوشم وبذلك لا تنفذ عين الحسود إلى الذراع نفسها.

***

لقد نظر المصري القديم إلى ما حوله من حيوانات وطيور وحشرات ولاحظ منفعة كل منها وضرره ثم أخذ يعبدها في أول الأمر ولما تقدم الفكر الإنساني ابتدأ يتخذها رمزا للآلهة التي يعبدها فكان يتقرب إليها إما طلبا لمنفعتها أو دفعاً لشرها وعلى هذا المبدأ نجد أن كثيرا من معبودات المصريين أعدت لتحقيق أحد الغرضين والآن نذكر بعض الحيوانات التي لا تزال محترمة في مصر الحديثة.

***

كانت القطة من الآلهة التي عبدت في مصر منذ أوائل الدولة القديمة وكانت تدعى "باست" وقد تركت لنا اسمها خالدا إلى الآن في اسم البلد التي كانت تعبد فيه وهي تل بسطة بالقرب من الزقازيق وقد عثرنا في منطقة أهرام الجيزة على بعض ألقاب لكهنتها "عظيم باست" وقد كانت تمثل الشمس أحيانا أي الإله "رع" وقد عثر على موميات مقدسة لهذه الآلهة بالقرب من بني حسن وكذلك على تماثيل عدة لها من البرونز في تل بسطه وغيرها من المدن التي كانت تعبد فيها وقد بقى

احترام القطة في كل عصور التاريخ المصري حتى يومنا هذا وتعد إهانتها من الأشياء المؤذية وقد وصل إلينا من صفاتها أن لها سبعة أرواح. وهذه الصفة من صفات الإله "رع" إذ نجد في المتون المصرية أنه كان ذا سبعة أرواح ثم أصبح له بعد ذلك أربعة عشر روحا وقد كان قدماء المصريين يعتقدون أن القطة مظهر من مظاهر الشمس "رع".

***

كان التمساح يعبد عند قدماء المصريين باسم "سبك" وهو إله الماء وقد حفظ اسمه إلى يومنا هذا من أسماء بعض المدن "سبك الأحد" وقد وجد بعض أفراد يسمون باسم "سبك تمساح" وكانت أكثر عبادته في جهات الفيوم وكوم امبو وقد كانت تقدم إليه القرابين يومياً في بحيرة قارون كما جاء نقلا عن كتاب اليونان وبقى احترام التمساح في مصر إلى يومنا هذا. فنرى بعض البيوت المصرية الحديثة تعلقه على واجهاتها منعا للشر وتيمنا به ويشاهد ذلك في معظم جهات القطر. وقد أخذ هذا الحيوان يتقهقر شيئا فشيئا من الدلتا إلى أعالي النيل حتى أصبح معدوما بالمرة من القطر المصري.

***

من الحقائق المدهشة في تاريخ الديانة المصرية القديمة أنه رغم تعاليم الكهنة واجتهادهم في جعل الحيوان والحشرات فقط رمزاً للقوة الإلهية فإن الثعبان كان يحترم ويخاف منه لذاته فقد كان يعبد حيث كان الإله آمون مجرد اسم وفي الوقت الذي كان ينظر فيه إلى "رع" بأنه إله

الأغنياء والعظماء مثل الخيل المطهمة الجميلة والملابس الأنيقة.

ولا شك أن مكانة الثعبان في الخرافات المصرية تدل على كثرته وخطره في العصور القديمة وكيف كان أثره المخيف على أهالي النيل. ففي الوقت الذي كان فيه شاطئ النيل عبارة عن مستنقعات غير مسكونة وكانت القبائل النيوليتيكية تبني أكواخها في الصحراء لابد أن الثعبان كان خطراً عظيماً في هذه الجهات. وإلى الآن لا يوجد الثعبان المخيف إلا في الصحراء ويقل خطره نوعا ما في الأراضي الزراعية.

ولقد كان الخوف منه شديدا حتى عند أكبر الآلهة فقد جاء في بعض الأقاصيص أن الآلهة "رع" قد لدغه ثعبان فسرى السم في عروقه كأنه نار. وكذلك نجد أن رمز الملوكية في أقدم العهود الفرعونية هو الصل إذ كان رمزاً للقوة التي لا تقاوم وشدة بأس الحاكم الفاتح ولما كانت المقابر المصرية تقام في الصحراء وكان الثعبان أكبر خطر هناك فقد أخذ القوم يتعبدون في جبانة طيبة إلى آلهة تدعى "مرت سجر" وكانت تمثل في شكل ثعبان وتلقب "بالقمة الغربية" وقد دخلت هذه الآلهة في العبادة الرسمية وبني لها مقاصير وكانت تدعى الآلهة "موت" وأحيانا "أزيس" إلا أنها لم يتغير شكلها عند القوم بل بقيت ترسم في شكل حية أو ثعبان.

ومن المدهش أن هذه العقيدة القديمة في الثعبان قد عاشت قروناً عدة في العهد المسيحي والعهد الإسلامي ولكن في شكل مختلف. فنجد إلى الآن أن الشيخ الذي أقيم ضريحه بجوار مقصورة "مرت سجر"

يعتقد فيه أنه يشفي بأعاجيب أي أنه أخذ مكانة الثعبان على أن الثعبان لم يكن يقدس خوفا منه ولكن الواقع لأنه يعيش تحت الأرض فكان يعتبر أنه أقدم سكان الأرض وحارس التربة. ونجد إلى الآن في معظم جهات القطر أن الثعابين تعتبر كحراس للبيت ويقدم لها اللبن يوميا على أنها كانت في الحقيقة تؤذي إلا أنها كانت تدخر سمها ولا أظنكم تجهلون قصة الثعبان الذي فقد أليفته فذهب إلى زير الماء وسممه غير أنه بعد قليل عثر عليها فرجع في الحال إلى وعاء اللبن وغمس نفسه فيه ثم زحف على الأرض حتى لون جلده بالتراب ثم ذهب إلى الزير وغمس نفسه فيه وبذلك عكر ماءه فعرف سكان البيت أن الماء قد سمم. ولم يقتصر الاعتقاد عند المصريين الحاليين بأن الثعبان يعتبر كحارس البيت فحسب بل لا يزال لتقديمه في وادي النيل له مكانة عظيمة. ففي المغارة الواقعة في جبل الشيخ هريدي يوجد ضريحان مقبيان ليسا لولبين مسلمين أو مسيحيين بل لثعبان ألفه. وذلك أن الشيخ هريدي ولي وأن المكان الذي يسكنه بقعة مقدسة ويقام له مولد سنوي في شهر شوال يأتي إليه الناس من كل فج ولم يكن عند القوم أي شك من قوة هذا الثعبان الخارقة للعادة وبلغ سمكه ما يعادل فخذ الرجل وإذا أساء إليه إنسان نفث في وجهه لهيب نار فيميته وهو يقطع إلى قطع يلتئم بعضها ببعض والدم المتخلف على هذه البقعة التي قطع فيها يشير إلى مكان كنز ويوصف بأنه ملاك. وقد روى بعض السياح أن هذا الثعبان قد شفى امرأة في أخميم كانت قد أصيبت بشلل أقعدها مدة طويلة وقد حدث الشفاء بوضع الثعبان في سريرها. ويقال عن هذا الثعبان أنه لا يموت وأنه

يمد يد المساعدة لكل من يطلب معونته ويشفي كل من قدم إليه القرابين. وكل من المسيحيين والمسلمين يعترفون بقوة هذا الشيخ الخارقة للعادة وهم يفسرون ذلك بأن هذا الثعبان يتقمصه جن. وعلى أي حال سواء أكان الشيخ هريدي من الأولياء أو من الجان فإنه متسلسل من ثعبان كان يعبد بالقرب من المكان الذي كان فيه منذ عصر ما قبل التاريخ وقد عثر على ثعبان من البرونز له رأس زيوس في الجهة الغربية من النيل تجاه مدخل ضريح الشيخ هريدي، يضاف إلى ذلك أن المقاطعة التي تضم ضريحه تسمى مقاطعة "جوحفي" أي مقاطعة الثعبان ومن ذلك نرى أن سكان الصحراء كانوا يقدسون الثعبان في العصر النيوليتيكي في هذه المنطقة. وكذلك توجد على صخرة تسمى حجر الغراب على بضعة أميال من شمالي أسوان كتابات مصرية قديمة من عصر الأسرة الثانية عشرة تدل على وجود معبد لثعبان على قيد الحياة والأهالي يعتقدون في هذه البقعة بوجود ثعبان طوله طول المجذاف وسمكه سمك الرجل ويسكن هذه الصخرة. وهذا الثعبان يظهر ليلا ويفتك بنار عينيه بكل من قاده سوء الحظ إلى هذه الجهة.

***

يلاحظ كثيراً في مختلف جهات القطر أن لبعض الأشجار المصرية احتراما خاصا يصل إلى درجة التقديس ونحن إذا ولينا وجوهنا شطر الديانة الإسلامية والديانة المسيحية لا نجد فيهما أثراً لذلك بل نجدهما على العكس فإن ذلك من البدع وقبل أن نبحث عن أصل تقديس بعض الأشجار في مصر القديمة نريد أن نعرف أولا إلى أي مدى تحترم

الأشجار وتقدس في مصرنا الحالية.

أولا– أن أهم الأشجار التي تقدس في مصر هي الجميزة والنخلة والسنطة ولا أدل على ذلك من وجود بلدان تحمل أسمائها فنجد مثلا بلدة الجميزة وبلدة السنطة والنخيلة.

ثانياً– أهم الأشجار وأكثرها احتراما هي شجرة الجميز واحترامها شائع في كل جهات القطر إذ قلما نجد جبانة دون أن يكون في وسطها أو على حافتها شجرة جميز. ويعتقد العامة أن قطع الجميزة من الأشياء المحرمة إذ أنها تروي الموتى وتظلمهم بفيئها وقلما نجد شجرة جميز في الجبانة أو بجوار مقام أحد المشايخ إلا ونجد بجوارها زير ماء للسقاية، وفاكهة هذه الشجرة من الأشياء المحبوبة والمادة التي تخرج من قشر ساقها تداوى بها الأمراض المختلفة. وقد بلغ التعصب بالقوم في بعض الجهات مبلغاً كبيراً لدرجة أنهم يعتقدون أن من يقطع شجرة الجميز أو غصنا منها تفنى أسرته بأجمعها وفي معظم الأحيان نجد شجرة الجميز مزروعة بجوار مقام أحد المشايخ "الأولياء" وفي هذه الحالة تأخذ الشجرة قداستها من الشيخ المزروعة بجواره ويعتقد القوم أن أوراقها تمتاز بخاصة عجيبة إذ تشفى الأمراض. ولا يجب على أي مسلم أن يأخذ ورقة واحدة إلا بعد قراءة صلوات. ويقص العامة أقاصيص غريبة عن ذلك منها أنه يوجد بالقرب من اللاهون مقام شيخ يدعى جاد الله بجواره ثلاث أشجار. وقد كان للشيخ خادم خاص يسكن مع أسرته في كوخ مجاور وفي ذات مرة أغرى أحد الزائرين زوج الخادم لتعطيه بعض أوراق من الجميز دون أن تتلو الصلاة المطلوبة، وقد حدث مصادفة بعد

بضع أيام أن توفيت زوج الخادم فعزى ذلك إلى قطع هذه الأوراق خلسة.

***

ومثل النخلة كمثل الجميزة لها مكانة عظيمة بين عامة الشعب وأذكر أنه في أسيوط أراد أحد الأهالي أن يبني بيتا فاعترض أحد الجدران نخلة ففضل أن يحول اتجاه البناء عن أن يقطع الشجرة وذلك اعتقاداً منه أن قطعها أمر محرم قد يسبب له خراب بيته ويجلب عليه النحس. ونجد أن خوصها يوضع فوق المقابر كقربان في مصر القديمة ومصر الحديثة على السواء. ويزرع النخل بجوار مقامات المشايخ مثل الجميزة فمثلا في إحدى عزب المنيا "عزبة مسمار" يوجد شيخ يدعى الشيخ سيد دفن في بقعة ذات بناء مخروطي الشكل وبجواره شجرة نخيل على مقربة من كوخ حقير مصنوع من اللبن يشعل فيه الشمع يوميا وتأتي إليه النساء العاقرات وتمررن على مقام الشيخ سبع مرات، وعندما تثمر النخلة تأكل واحدة من فاكهتها ويعمل هذا ثلاث مرات في أيام الجمعة مع ملازمة الصمت في الذهاب إلى الزيارة وفي العودة منها.

واعتقاد العامة هو أن روح الولي أو الشيخ تسكن الشجرة ويفسرون ذلك بأن من بين هؤلاء الأولياء من يموت قتلا فيصنع له تمثال من الطين في المكان الذي أهدر فيه دمه حتى لا يتحول عفريته فيضايق الأحياء غير أن التمثال كان يبلى على مر الأيام فتنبت على بقاياه شجرة تسكن فيها روح الشيخ حتى وإن لم يكن له ضريح هناك ومن المحقق أن الروح

تسكن الشجرة في يوم مخصوص من الأسبوع– يوم الخميس أو يوم الجمعة– "أي يوم الطلعة".

هذا هو ما نجده في مصرنا الحالية ولنعد الآن إلى أصل كل ذلك عند قدماء المصريين لنربط الماضي بالحاضر.

في مقبرة "رع جسر كاسنب" في طيبة نجد على أحد جدرانها صورة فلاح يؤدي صلاة الصبح إلى شجرة جميز مغروسة في أحد أركان حقل قمح على حين أن قربانا من الفاكهة والخبز والماء موضوع تحت ظل الشجرة وقد حاولت الديانة الرسمية أن تحلل عبادة هذه الشجرة كما حاولت المسيحية تحليل عبادة "عين الماء" بأن جعلت الشجرة في خدمة الإله ورأت فيها مظهراً من مظاهر الألوهية فأصبحت جميزة الجنوب تمثل جسم البقرة "حاتحور" التي يرى رأسها خارجاً من بين أغصان الجميزة.

وأحيانا تمثل شجرة الجميزة الإله "حاتحور" مطلة برأسها من بين أفراعها وفي يدها إبريقان مملؤان بالماء للسقاية وكان قدماء المصريين يعتقدون أن الآلهة تسكن هذه الشجرة وأنها شجرة الحياة وأن فاكهتها تغذى الأموات وكان من تمنيات المتوفى أن تنتقل روحه على أغصان الجميزة وأن تظلله بفيئها وأن يأكل ثمرها الشهي.

ومن ذلك يتضح لنا أن الفكرة القديمة والحديثة عن تقديس الجميزة تتفقان معا.

أما عن الاعتقاد بأن الشجرة تنبت من تمثال الطين الذي عمل

للولي فيرجع إلى أصل مصري قديم أيضا إذ كان يعتقد أن شجرة الجميزة قد نبتت من جثة أوزيريس وقد كان المتعبدون يخاطبونها بما يأتي "مرحبا بك أيتها الجميزة التي تضم الآلهة والتي تحتها يقف آلهة الآخرة أنت يا من أطرافها قد أحرقت ويا من جزعها قد التهب ويا من تساويت معه في الآلام وأنت يا أوزيريس فهي تظلل عليك وتصد "ست" منازلك وأنت أيتها العذراء الرشيقة (يقصد الشجرة) التي قد خلقت الروح".

وإلى يومنا يعتقد العامة في أن الأشجار المغروسة بجوار الأولياء تشفي المرضى وترد المفقود بدق مسامير في جزعها.

***

لقد توارث المصريون بعضهم عن بعض عادات خاصة بدفن موتاهم والاعتناء بهم بعد الموت من أقدم عصور التاريخ وقد ظلوا محتفظين بها على الرغم من كل التقلبات الدينية التي مرت على البلاد والآن نريد أن نبحث في هذه العادات من بداية إصابة الفرد بالمرض إلى أن يدفن ثم بعد الدفن.

لقد ظل الفلاح المصري إلى زمن غير بعيد لا يؤمن بمداواة علله بالطرق الحديثة فكان يلجأ إلى صنع أدويته من الأعشاب والعقاقير الطبيعية كما كان يلجأ أيضا إلى قوة الصيغ السحرية وهذا ما نجده بالضبط في ورقة "إيبرس" و"ورقة لندن" و"ليدن السحرية".

غير أن هذه الطرق القديمة أخذت في التلاشي أمام العلم الحديث بالرغم من أن بعض القوم لا يزالون متمسكين بها ففي كثير من الأسر

التي لم تتسرب إليها أساليب المدنية الحديثة يداوي المريض بالتعاويذ السحرية فمثلا نجد الآن أن فقيه القرية يحمل معه كتابا خاصا بالتعاويذ السحرية فإذا مرض أحد الأهالي نودي به في الحال فيكتب للمريض التعويذة الخاصة بمرضه على طبق من القيشاني ثم يغسل هذا الإناء حتى تمحى الكتابة ويعطى الماء المتخلف من ذلك إلى المريض ليشر به فيشفى وهذا ما نقرأه على تمثال "زد حر" الموجود بدار الآثار المصرية في القاهرة وقد كان هذا الكاتب مشهورا بالمداواة بواسطة التعاويذ السحرية وقد جمع منها عدداً عظيما وقبل وفاته عمل لنفسه تمثالاً من الجرانيت كتب عليه كل التعاويذ التي جمعها مدة حياته حتى يمكن الأحياء أن ينتفعوا بها بعد موته. وقد قال إذا كان الفرد مصابا بمرض كيت وكيت فما عليه إلا أن يصب الماء على تمثالي يجرى على الكتابة فإذا ما شرب منه شفى وأحيانا يكتب الشيخ التعاويذ بالحروف الأبجدية فيحملها المريض حول عنقه أو على رأسه أو في المكان الذي يؤلمه وفي هذا شفاء له. ومثل هذه التعاويذ نجدها بكثرة في ورقة ريلند الموجودة في لندن وقد يعتقد أهل المريض أحيانا أنه مرض حسدا فيأتون بامرأة معروفة في البلدة أو القرية بالرقية الشافية فتتلوا الرقية التي يصحبها حرق البخور في أرجاء البيت وخاصة الفاسوخ لأنه يفسخ العين المؤذية وفي أثناء تلاوتها تمسك بيدها ورقة قصت على شكل تمثال الحسود عملت فيها خروم بواسطة خياط (إبره) ثم تحرق هذه الورقة أمام عين المريض. وتفسير هذا بسيط وذلك أن المصري كان يعتقد أن الضرر الذي كانت تسببه عين الحسود ناشئ من أن العين المؤذية أصابت

الجسم ولذا عمل لصاحبها تمثال من الورق صوب إليه وخز الإبر أما حرق البخور فهو لا يعاد الشياطين والأرواح الشريرة من حجرة المريض ومن البيت وكذلك من جسم المريض.

وفي بعض جهات للقطر (طلخا بالوجه البحري) تضع أسرة المريض الخبز تحت رأس المريض ظناً منهم أن ذلك يمنع الأرواح المؤذية من مهاجمة العليل وهذا الخبز بمثابة قربان لها أما إذا كان المرض مسبباً عن لدغة ثعبان أو حشرة مؤذية فقد كانت وطأة السم تخف بواسطة التفل على المكان الملدوغ.

وفي مصر الحديثة يوجد في كل قرية شخص مشهور بمداواة لدغ العقرب أو الثعبان بالتفل على مكان اللدغة وكذلك يعتقد أن في قدرة المشايخ شفاه لدغ الثعبان كما كان يفعل تحوت آله العلم والطب عند القدماء وعندما تعجز طرق السحر من مداواة المريض فينتهي الأمر إلى موته وتأخذ الأسرة في تجهيزه للدفن فإذا مات في ساعة متأخرة من النهار وكان لزاما أن يبيت في حجرته فإن الواجب أن لا يترك وحده بل يبقى معه أحد أفراد الأسرة أو يوضع تحت رأسه رغيف ليكون بمثابة قربان لروحه "كا" وبذلك تبقى معه لتؤنسه في البيت.

وعند دنو أجله يوضع رأسه جهة القبلة كما هو المتبع في الديانة الإسلامية غير أنه رغم ذلك فإن كثيرا من المصريين الحاليين يضعون رأس المتوفى جهة الغرب ويرجع هذا إلى اعتقاد المصريين الأقدمين بأن الغرب هو المكان الذي تدفن فيه موتاهم ولذلك يقال في الأمثال العامية

"عين الشخص غربت" إذا أشرف على الموت أي أنها تتجه جهة الغرب. بل كان دائماً في الجهة الشرقية أو المجرية ويقال في أمثلة العامة "مبحر نوم السلاطين ومشرق نوم الوزراء ومقبل نوم الشياطين ومغرب نوم الوحدة" وعند الأقباط المتسلسلين من المصريين القدماء عندما يتوفى الشخص يدار رأسه جهة الغرب ورجلاه جهة الشرق وتفسير ذلك عند قدماء المصريين يطابق الواقع عند المصريين الحاليين فإنك نجد أن أبواب مقابر الملوك– الأهرامات– دائما في الجهة البحرية "مبحر نوم الملوك". أما أبواب مقابر عظماء القوم وبخاصة الأسرة الرابعة والخامسة والسادسة فكانت في الجهة الشرقية لاستقبال الشمس المشرقة. أما الغرب فكان الجهة الخاصة بدفن الموتى ولذلك نجد أن كل مقابر قدماء المصريين كانت تقع في الجهة الغربية من النيل ومن الغريب أن معظم فلاحي القطر المصري يتشاءمون من فتح أبواب منازلهم في الجهة الغربية ولذلك يعتقد المصريون الحاليون أن الشرق فيه انبعاث الحياة وأن الغرب دال على العدم. ولقد أثرت العقيدة المصرية القديمة على الكتاب المصريين الحاليين فقد جاء في "لسان العرب" الذي ألفه مصري في هذا التعريف في أي قاموس من قواميس اللغة العربية إلا في قاموس لسان العرب لأن مؤلفه مصري "انظر لسان العرب جزء ١٢ صفحة ٤٠ طبعة ١٣٠٢".

وفي الصباح تجتمع النساء عند بيت المتوفى ثم يتركن البيت ويطفن حول القرية إعلانا بوفاة الرجل الراحل وهن يبكين ويندبن ويصبغن وجوههن باللون الأسود أو بطمي النيل ويرخين شعورهن. وهذه العادة

بذاتها كانت موجودة عند قدماء المصريين وتشاهد مرسومة على مقبرة "راموزا" بطيبة. أما الرجال فكانوا يجتمعون أمام البيت ويأتي إليهم من يواسيهم وقد عثر على ذلك في إحدى الأوراق البردية.

وذلك أن ضابطا من ضباط الجيش كتب خطابا إلى زوجه المتوفاة يقول "وعندما وصلت إلى منف وطلبت أجازة من الفرعون وأتيت إلى المكان الذي كنت فيه بكيت بكاء مراً مع أهلي أمام دارنا وقد أعطيت ملابسي الكتانية لتكفينك وكذلك صنعت ملابس كثيرة لك ولم أترك شيئا لم افعله".

أليس هذا ينطبق على ما نقول به اليوم نحو موتانا؟

والآن يأتي دور غسل الميت وهذه عادة إسلامية ومع هذا فإن العادة المصرية القديمة قد تركت أثرها في ذلك وأقصد بهذا غسل الميت بماء الورد وقد عثر على ذلك في ورقة اللوفر التي ترجمها ماسبرو. وأحيانا نجد في الوجه القبلي بعض القرى تغسل موتاها بمنقوع ماء النبق وقد عثر على نقوش تثبت ذلك في متون الأهرام "تعتبر أكل فاكهتها مطهر" أما موضوع تكفين الميت فعادة مصرية قديمة بحتة إذ حرمت الديانة الإسلامية تكفين الموتى في أقمشة غالية الثمن ونعلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد كفن في بردته.

دعنا الآن نرى ما يفعله المسلمون في مصر عند تكفين موتاهم رغم تعاليم الإسلام ففي الوجه القبلي يكفن الميت أحيانا في خمسة عشر قيمصا أي ما يقرب من نحو سبعين مترا أما في الوجه البحري فيختلف

هذا باختلاف ثروة الشخص فالأغنياء يكفنون موتاهم أحيانا في سبعة أدراج أما عند قدماء المصريين فقد كان يبلغ طول القماش الذي يكفن فيه الميت أحيانا نحو خمسمائة ذراع ومما يسترعى النظر عند المصريين المحدثين استعمالهم القماش الذي كان يغطى به ضريح الأولياء أو المشايخ في صنع أكفانهم وأحيانا نجد بعض الأغنياء أو أفرادا من الطبقة الوسطى يبذلون جهدهم مدة حياتهم في جمع بعض الملابس التي كانت تغطي ضريح الأولياء ويدخرونها ليكفنوا فيها ولدينا ما يشبه هذا في مصر القديمة وذلك أن بعض القوم كانوا يرغبون في أن يكفنوا في ملابس كان يستعملها الإله أي كانت توضع على تمثال الإله فكانت اللفائف التي يلف فيها تمثال الإله يوميا تؤخذ وتستعمل كأكفان للموتى تبركا بها على أن عامة القوم كانوا يكتفون بأن يحصلوا على قطع صغيرة من هذه اللفائف يضعونها في أكتافهم وهذا ما نشاهده في مصر الحديثة إذ نجد القوم يتهافتون على قطع من كسوة الرسول عليه السلام وكذلك على قطع من غطاء ضريح السيد البدوي وغيره من الأولياء ويحتفظون بها لتكون معهم في أكفانهم.

***

وقد كان من عادة المصريين أن يحمل أصدقاء المتوفى التابوت على أعناقهم وهذه العادة لا تزال مشاهدة في مصر الآن بل هذا هو الشائع. وقبل أن يخرج الميت من البيت كان يوضع معه في كفنه بالقرب من قدميه كتاب الموتى وهو عبارة عن عدة تعاويذ تكتب على ورقة بردية كبيرة الحجم وقد بلغ عدد هذه التعاويذ أحيانا ١٦٥ تعويذة. وهذه

التعاويذ كانت تساعد الميت على اقتحام العقبات التي كانت تعترضه في الحياة الآخرة وتبرئه أمام محكمة العدل يوم الحساب في حضرة الإله "أوزوريس" و"تحوت" والآلهة "معات" وغيرهم من الآلهة. وقد اتخذت هذه العادة في مصرنا الحالية شكلا خاصا عند المسلمين وذلك بأن تقرأ عتاقة للمتوفى قبل خروجه من البيت ويعمل له إسقاط الصلاة. ولكن هناك ما يثير العجب أكثر من هذا إذ أن الفرد كان يعمل لنفسه عتاقة قبل مماته فيأتي بالفقهاء الذين يقرأون الصمدية ومعهم خيط طويل وفي كل دفعة تعقد عقدة حتى تصل العقد إلى عدد محدود فيأخذ الشخص هذا الحبل ويحتفظ به ليدفن معه وهذه العادة نشاهدها في كثير من قرى مديرية الدقهلية، وهذه الصمدية تقوم بلا شك مقام كتاب الموتى لتساعد المتوفى وقت حسابه وأحيانا يوضع معه نسخة من القرآن الشريف.

وقبل أن يخرج المتوفى من البيت كانت تذبح له ذبيحة أو ذبيحتان عند باب البيت وكان يوضع معه منها أجزاء في القبر. وقد عثرنا على عظام ثيران في مقابر كثيرة من الدول القديمة والمتوسطة والحديثة. وقد ظلت هذه العادة في مصر الحديثة حية بشكل ظاهر. والآن إذا توفى إنسان تذبح له ذبيحة تسمى كفارة. وفي بعض الجهات تسمى ونيسه أي تؤنسه في قبره وفي بعض جهات القطر توضع بعض أجزاء هذه الذبيحة مع المتوفى في القبر. ففي كفر بولين مركز كوم حمادة مديرية البحيرة يلف رأس الذبيحة في قطعة من القماش ويدفن مع الميت.

كان قدماء المصريين يكسرون وراء الميت عند خروجه من البيت إناء ويضعونه معه في قبره منعاً من أن تعود قرينته "كا" إلى الأحياء

فتؤذيهم. وقد عثرنا على مقبرة لسيدة من علية القوم من الدولة القديمة وجدنا فيها الإناء مكسرا إلى قطع موضوعة فوقها قطعة حجر. وهذه العادة بذاتها لا تزال باقية في مصرنا الحديثة إذ أنه إذا خرج شخص من البيت وكان غير مرغوب في عودته إليه ثانية فكان يكسر وراءه إناء كسر منه جزء، وهذا ما يسمى عند الفلاحين قواراً. وقد شوهد أيضا كسر القوار وراء المتوفى خوفا من رجوع عفريته ومعاكسته لأهل البيت (إذا مات قتيلا).

***

يشاهد في معظم جهات القطر وبخاصة في القرى التي لم يتطرق إليها التمدين أن الاحتفال بدفن الميت يشبه في كثير من الوجوه ما نراه مرسوما على جدران مقابر المصريين فكان ترتيب الاحتفال أن يتقدم حاملو المباخر ثم القراء فأصحاب المكانة ثم أهل البيت ملتفين حول التابوت، أما النساء فكن يمشين وراء النعش بشعور محلولة ووجوه ملطخة بالطين ومصبوغة باللون الأسود علامة على الحزن ثم يندبن ويبكين.

وعندما يصل الاحتفال إلى المقبرة يترك التابوت فترة قصيرة أمام القبر الذي كان يبني عادة على شكل مصطبة أو شكل قبائي. وقد بقيت هذه الأشكال في مصر الحديثة على أننا نجد كذلك من بين مقابر الفقراء في مصر وبخاصة الوجه البحري مبنية بالشكل الهرمي الذي لم يكن يستعمل في مصر القديمة إلا للملوك وزوجاتهم.

وقبل أن يغيب الميت في مقره الأخير كانت تأتي زوجه وتودعه الوداع الأخير وتقبله وتنوح بألفاظ تقطع نياط القلب. وإليك مارثت به زوج زوجها المتوفى: "إنني أختك أيها الرجل العظيم لا تهجرني! لماذا أنت بعيد عني! أنت يا من كنت تحب المزاح معي أنت الآن صامت لا تتكلم".

وخلف الكهنة كان يندب أقاربه النسوة الفقيرات والأطفال الذين كان يعني بهم في حياته قائلين: "وأحزناه وأحزناه! يا لعظم الخسارة! لقد ذهب الراعي إلى أرض البقاء وذلك الذي كان له أصحاب كثيرون أصبح الآن في بلد تحب الوحدة. وذلك الذي كان يحب أن يفسح لساقيه العنان أصبح الآن سجينا مربوطا مغلقا عليه. وذلك الذي كان له ملابس الكتان الجميلة وكان يلبسها بفرح وسرور ينام في ملابس قد وضعت عليه منذ الأمس" أما العظماء الذين كانوا يسيرون وراء جنازته فبرغم أنهم لا يشاطرون في العويل والبكاء إلا أنهم كانوا يظهرون ارتياحهم لما يرونه من مظاهر الإخلاص والحب الذي يبديه أقارب الميت نحو فقيدهم العزيز فيقولون ما أحسن حظ هذا الرجل لقد أحبه ربه بدرجة عظيمة حتى جعله يصل إلى الغرب يتبعه أجيال من خدامه وأتباعه.

وهذا المنظر مألوف في قرى الوجه البحري ويلاحظ في وقتنا هذا من أول خروج المتوفى من البيت إلى أن يوضع في قبره أن حملة الماء يقربون الماء إلى الماء إلى الناس ليشربوه ترحماً عليه وبعد دفنه يصب الماء على قبره، ونشاهد كذلك في أثناء سير الجنازة أن الجمال تحمل الكعك والفطير والفاكهة لتوزع على الفقراء رحمة على الميت.

وهذه العادة شائعة في مصر الحديثة.

وأهل الميت عندما يوزعون هذه القرابين يقولون الألفاظ الآتية "رحمة ونوراً" على روح الميت وهذه العادة مصرية محضة.

والواقع أن المصري القديم كان لا يتطلب في مأواه الأخير أكثر من رحمة أوزوريس يوم الحساب والنور في قبره. وكان المصري يجهز نفسه من أجل الرحمة بواسطة بعض فصول من كتاب الموتى (انظر فصل ١٢٥ ليوم الحساب) أما النور فهناك كتاب خاص يسمى "كتاب الخروج من القبر نهارا" ومن المدهش أن المصري الحديث مثله كمثل المصري القديم في انزعاجه من ظلمة القبر ولذلك إذا دعا إنسان لآخر قال له "نور الله ضريحه" وفي مقبرة **Pahori** نقرأ النقوش الآتية "تخرج كل يوم نهارا وتعود كل يوم مساء إلى بيتك (المقبرة) وفي خلال الليل يضاء لك مصباح إلى أن تشرق الشمس ثانية وتنير جسمك ويقال لك مرحبا في بيتك هذا بيت الأحياء وأنت ترى رع في أفق السماء وتشاهد أمون عندما يطلع".

وقد بقيت عادة إضاءة مصباح على قبر الميت في مصرنا الحديثة إذ أن أهال المتوفى يضعون مصباحا فوق قبره مدة أسبوع أو أسبوعين كذلك في الحجرة التي مات فيها فإنهم يضعون مصباحا مدة ثلاثة أو سبعة أيام وقد تمتد المدة في بعض الجهات إلى أربعين ليلة وذلك يتوقف على العادة المتبعة في الجهة التي توفي فيها الميت خوفا من عفريته.

وفي أيام الأعياد تضاء المصابيح على قبور الموتى وهي عادة شائعة في كل أنحاء القطر.

وعندما يغيب الراحل في قبره كان لابد أن يفكك كفنه قبل أن يوارى عليه الرمل حتى لا يكون سجينا في لفائفه وفي مصرنا الحديثة يقوم بهذه العملية الابن الأكبر فيفكك عن والده أو والدته وإذا لم يكن له ولد فأحد أقاربه وهذه العادة بفصها ونصها عثرنا عليها في متون الأهرام إذ قام حوراس بالتفكيك عن والده أوزوريس وهذا هو واجب الابن نحو أبيه فيقول النص "أن حوريس يأتي إليك وأنه يفكك عنك لفائفك ويرمي بعيداً عنك أغلالك".

والغرض من هذا هو منح الراحل الحرية الكاملة في تحريك أعضاء جسمه.

***

كان المصري القديم يعتقد أن المتوفى لابد له من طعام يغذي به قرينته في قبره لأنه كان يعتقد أن لكل فرد قرينة لا يمكن أن تنضم إلى جسمه وتسكن فيه في العالم الآخر إلا إذا كان الجسم محفوظا وكذلك لابد أن يقدم لها القرابين كل يوم لتأكل منها ولأجل الاحتفاظ بالجسم كان المصري يجتهد في إخفاء مقبرته في مكان حصين ليحفظه حتى لا يتطرق إليه البلى ويعمل له تمثالا يحل محل الجسم إذا بلى وأهم من كل ذلك أنه كان يحبس الأوقاف ليقدم لقرينته القرابين يوميا وفي بعض الأحيان كان يضع المأكولات معه في القبر وقد بقيت هذه العادة الأخيرة

إلى الآن ويعتبرها كل من الدين المسيحي والإسلامي نوعا من البدع ولكنها في الحقيقة عادة مصرية قديمة وقد أخبرني صديق لي أنه بجوار بلدة طنطا شاهد في قرية هناك أن أقارب المتوفى وضعوا معه في قبره حماما ودجاجا مشويا ليكون له غذاء في قبره وفي معظم قرى الوجه البحري مثل (ميت غمر وميت ناجي المعصرة) تضع أسرة المتوفى إبريق ماء وثلاثة أرغفة من العيش وقليلا من الملح غير أن هذه العادة كانت تعمل إذا كان المتوفى سيدفن في قبر لم يكن قد دفن فيه أحد من قبل وتفسير ذلك يختلف باختلاف الجهات فبعض القرى تعزو وضع هذه الأشياء إلى الرغبة في الائتناس والبعض الآخر يعتبرها غذاء للراحل وقد شاهدت في القاهرة بعض القوم يضعون رغيفين وقليلا من الملح في النعش تحت رأس الميت على أن توضع معه في القبر.

***

لما كان المصري القديم يعتقد أنه سيحيى حياة أخرى كان يضع معه كثيرا من الأثاث الذي كان يتمتع به في الحياة الدنيا وبخاصة التي كان يحبها وقد نجد في المقبرة أثاثا لم يكن قد استعمل من قبل وأثاثا استعمله الميت مدة حياته– وقد عثر في حفائر الجامعة على أشياء كثيرة من هذا النوع وفي عهد الدولة الحديثة عثر على أشياء كان لها فضل كبير في إماطة اللثام عن معلومات قيمة تتناول الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية عامة وقد بقيت بعض هذه العادات إلى عصرنا هذا يستعملها الأقباط والمسلمون على السواء فمثلا كما كان يوجد مع الأطفال في عهد الدولة الحديثة أدوات كتابتهم في مقابرهم نجد الآن أن أهل الميت

يضعون معهم لعبهم وألواح كتابتهم المكتوبة عليها بعض أجزاء من القرآن الكريم وهم في المكتب وهذه العادات لا تزال موجودة في أبي جرج ويقول أو من في كتابه "الأدب المصري" أن معظم الحكم والأمثال التي وصلت إلينا قد عثرنا عليها مكتوبة على ألواح كتابة الأطفال في المدارس في مقابرهم. وإلى الآن يوضع حلي المرأة معها وكذلك يوضع أحيانا طشت وإبريق وشبك (أبو جرج).

والآن دعنا نترك المتوفى ساكنا في قبره لننظر فيما يقوم به أهل الفقيد نحو راحلهم العزيز– في مصر الحديثة كما كان في مصر القديمة لم تترك أسرة المتوفى فرصة دون أن تظهر احترامها لذكرى الراحل– في مصر القديمة كان أهل الميت يمتنعون عن كل أنواع الملاذ والسرور والطعام اللذيذ والملابس الجميلة والاستحمام وكذلك كانوا يرخون لحاهم وقد شاهد ذلك هيرودت بنفسه وهذا ما نشاهده في كل جهات القطر الآن وفي الوجه البحري نشاهد الرجال يرخون لحاهم مدة أربعين يوما أما النساء فيتركن شعورهن محلولة أو يقصونها وهذه عادة شائعة في الوجه القبلي وفي اليوم الثالث من ممات الشخص تجمع نساء أهل المتوفى ملابسه ويحملنها في سلة إلى شاطئ النهر أو الترعة المجاورة لهن لتغسل وفي أثناء سيرهن تقوم أختا المتوفى بالتعديد ذا كرتين ما كان عليه المتوفى من صفات أما النساء الأخريات فكن يتبعنها بالعويل في الذهاب والإياب وهذه العادة على ما أذكر مقصورة على الوجه البحري.

وبفضل هذه العادة استطعنا أن نفسر قطعة من الفصل الأول من كتاب الموتى كانت غامضاً مبهمة إذ يقول المتوفى "قد كنت مع الباركين

على أوزوريس (أي مع إزيس ونفتيس) عند شاطئ رختي. ورختي هذا هو المكان الذي كانت تغسل فيه ملابس المتوفى ومعنى كلمة رختي لغويا الغسيل فحينئذ كان شاطئ رختي معداً لغسل ملابس الميت في اليوم الثالث. أما المرأتان اللتان كانتا تعددان مناقب الراحل في مصرنا الحديثة فإنهما تقابلان في مصر القديمة إزيس ونفتيس وبذلك أصبح مفهوما لدينا مكان الغسيل في كتاب الموتى.

ويرجع السبب في غسل ملابس الراحل في اليوم الثالث إلى أنه في هذا اليوم حينما تغسل الملابس تتركها الروح العالقة بها وتنضم إلى الجسم حيث تسكن معه في القبر وكان غسل الملابس يحدث وقت غروب الشمس حتى يمكن للروح أن تغرب مع الشمس إلى مثوى الراحل ومن الغريب جداً أن النسوة بعد غسل الملابس يذهبن إلى المقبرة ويضعن عليه طبقة من الطين ظانين أنهن يمنعن الروح من الخروج من المقبرة مرة أخرى.

***

كان المصري القديم يهتم اهتماما كبيراً باتخاذ الأهبة لتقديم القرابين لقرينته فكان يحبس عليها الأوقاف وكانت تعمل لذلك وصايا مثل وصايا أسيوط العشر وكان أهل الميت يذهبون إلى قبره كل يوم إذا كان غنياً وفي الأعياد فقط إذا كان فقيراً وفي عصرنا الحالي تحبس القرابين على قبور الموتى حتى يترحم من خرجها على أرواحهم ولا فرق هناك بين تقديم القرابين في مصر القديمة ومصر الحديثة. ففي الأولى

كانت توضع القرابين على مائدة القربان ليستفيد منها الكهنة وفي الثانية يأخذها المقرئون الذين يحضرون لذلك الغرض في يوم الخميس أو يوم الجمعة وفي كلتا الحالتين كان يعتقد أن روح الميت تتمتع بكل ما يقدم لها من أنواع الطعام والشراب ومن غريب العادات المتأصلة عندنا هي زيارة الميت أسبوعياً والترحم عليه ولم أعرف لهذه العادة أصلا حتى عثرت عليها مصادفة في الكتابات المصرية القديمة وذلك أن "إزيس" كانت تزور قبر أخيها أوزوريس في جزيرة بجا بالقرب من أسوان أسبوعياً للترحم عليه فكانت تصب الماء على قبره وتجلس تحت ظل الشجرة التي تمثل الإله نفسه (رهى عندنا الآن الطلعة) ومن العادات القبطية الشائعة في وقتنا هذا أن أهل الميت عندما يزورون قبر راحلهم يضعون قليلا من حب القمح على مقبرته وهناك يأكلون بجواره ما كان يحبه في حياته.

.....

(*) المجلة الجديدة – أبريل – ١٩٣٧

الفلاح المصري يشكو اضطهاد طبقة الموظفين[*]

كما دونها حكيم مصري قديم على بردية منذ اثنين وأربعين قرنا

[ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا... اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى]

سعيدة الأمة التي خلفت وراءها ماضياً مجيداً، وتراثاً خالداً، وتاريخاً حافلا، تستعد العون من معين عظاته ودروسه الخالدة، عندما يقلب الدهر لأبنائها ظهر المجن، وتنقطع بهم أسباب المعونة، ووسائل الخروج من المآزق الحرجة، وإذا كان لأمة من أمم العالم القديم أن تفخر بمالها من تراث تليد ومجد مؤثل في الحضارة العالمية، وبخاصة في نشر المثل العليا في الاجتماع والسياسة، وسبل لمصر بلا نزاع لها قصب السبق في ذلك المضمار؛ إذ لا يعرف التاريخ حتى الآن حضارة مدونة محفوظة تضارع الحضارة المصرية في القدم؛ فقد انبثق فجرها منذ ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً في فترة من الزمن كان جل العالم الذي نعيش فيه لا يزال في سبات عميق غارقاً في لجة من ظلمات الجهل التي لم يفق منها إلا بعد أن أفاضت عليه مصر من نورها وعرفانها.

ولا غرابة إذن في أن يقال عن مصر إنها المعلم الأول لدول العالم القديم، على أن تاريخ المدنية المصرية يرجع إلى عهد أقدم بكثير من تاريخ ظهور مدنيتها المدونة، وهذا العهد كان عهد حكم الآلهة كما زعم المصريون وعلى رأسهم الإله الأعظم الذي كان يمثل في الشمس، وكان عهده نموذجاً للحكومة العادلة التي قوامها الحق والصدق والمساواة.

ولما انتقل الحكم إلى أيدي البشر ساروا على نهج الإله الأعظم في حكمه العادل الذي كان رائده الحق للحق مدة طويلة من الزمان تبلغ نحو ألف سنة أو تزيد. وهذه الفترة يطلق عليها في التاريخ المصري عهد الدولة القديمة أي من ٣٤٠٠ إلى نحو ٢٤٠٠ ق. م. تقريباً؛ غير أن عامل الفساد كان قد بدأ يسري في جسم الدولة وئيداً فتنحى حكامها عن العدالة الاجتماعية، فكان ذلك نذيراً بانحلال وحدة البلاد حتى رجعت سيرتها الأولى قبل توحيدها على يد مينا، فصارت إقطاعات مستقلة عن العرش تقريباً. وقد أدى ذلك الانحلال إلى سقوط الدولة القديمة، ومن ثم فشا الخراب، وعمت الفوضى، وقامت طبقة الفقراء والمضطهدين في البلاد بثورة طاحنة أتت على الأخضر واليابس، مطالبين بالعدالة وكشف الضر عنهم. وقد ظلت البلاد مقسمة اقطاعات مستقلة إلى أن قامت أسرة عريقة في "إهناسية المدينة" وأسست حكومة ملكية؛ غير أن سلطانها لم يكن يمتد على البلاد كلها إلا اسما.

والواقع أن حكم الإقطاع الغاشم كان متفشياً في ذلك العهد إلى حد بعيد، وكانت مظالمه واقعة على الفلاح والعامل بدرجة شائنة غاشمة. ولقد رأى رجال الفكر في ذلك العصر الحالة المحزنة والظلم الفاحش، والاضطهاد الشائن، الذي كان يئن منه الفلاح وغيره من أهل الطبقة الدنيا، ثم قرنوا تلك الحالة بما كانت عليه حكومة البلاد قبل أن يدب في جسمها الفساد، وتذكروا عهد حكومة الإله العظيم أيام كانت العدالة هي قانون البلاد، وكلمته العليا. ولذلك تطلعوا إلى ذلك الماضي المجيد، فكانت ذكرياته وما فيه من مثل عليا حافزاً لهم على المحاربة

بأسنة أقلامهم الملتهبة حماسة بسبب ما وصلت إليه حالة البلاد من الخراب وانقلاب النظم الاجتماعية، التي نشأت من ظلم طبقة الأغنياء للفقراء، استئثارهم بالثروة، ووضعهم الفلاح والعامل في مرتبة الحيوان أو أحط منزلة منه. غير أن بعض أولئك الكتاب كانوا يرجون ويؤملون صلاح هذا المجتمع الفاسد الذي انقلبت فيه الأوضاع الإنسانية، وأخذ الفقراء ينقمون من أصحاب الثروة والجاه الذين ساموهم سوء العذاب. والواقع أن بعض أولئك الكتاب المفكرين كان مقتنعاً بإمكان السير نحو عهد جديد على أساس إيجاد جيل من الموظفين الأمناء العدول.

وطائفة أخرى رأت أن تحقيق ذلك قد يأتي على يد ملك عادل مخلص مجدد للمجتمع، فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية للحياة الحقة، التي يمكن أن تطبق على الحياة اليومية بانتقاء طائفة الموظفين على أسس متينة. وهؤلاء المفكرون هم الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق والعدالة الخالدة، وهي التي كان يعبر عنها المصري القديم بكلمة "ماعت". وقد استمروا على التمسك بأهداب ذلك الأمل، ووجوب سيادة العدالة لأنها استطاعت السيطرة على الحياة المصرية قديماً.

وهذه الآراء قد عبر عنها في مقال يمكننا أن نسميه الفلاح الفصيح، أو شكاوى الفلاح المظلوم. ولحسن الحظ قد وصلت إلينا نسخة من هذا المقال الرائع كاملة غير منقوصة، والبردية التي تحتويه موجودة الآن في متحف برلين وكاتب هذا المقال جندي مجهول.

وقد وضع المؤلف بين أيدينا في ذلك المقال الممتع مناقشة في هيئة قصة رائعة جعلها في شكل سلسلة من البحوث المؤثرة المسرحية عن خُلق الموظف المستقيم، وما انطوت عليه روحه، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والإدارية نحو الفقير المهضوم الحقوق، في ذلك العهد الذي طغى فيه الأغنياء حتى إن الرجل الفقير لم يكن ليجد قوة تحميه ممن هم أقوى منه. وقد كان ضمن المقترحات التي أشار بها أحد حكماء هذا العصر لعلاج طبقة الموظفين، أن يجعل لكل موظف راتب عال وفير.

وسنرى فيما يلي أن هذا العلاج كان غير ناجع بمفرده؛ لأننا سنجد فيما سيأتي ذكره أنه حدث بمشهد من القصر الملكي بجوار "إهناسية المدينة" عاصمة الملك إذ ذاك، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الأخلاق في ضيعة مدير أملاك الفرعون في ذلك الوقت. وهذا الحادث يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات الراتب الضخم لا تغرس في نفس صاحبها العدالة، ولن تغني الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له، والعبث بالشيء القليل الذي يملكه.

ومما هو جدير بالذكر أن ترى ذلك المفكر القديم الذي كتب قصة الفلاح الفصيح، وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء، عقبة الاضطهاد القائمة أمامه التي صارت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل في بلادنا بل في الشرق، حتى إن الأوربيين قد استساغوها لأنفسهم في معاملتنا.

والواقع أنها مسألة لم يستطع حلها حلا مرضياً إلى الآن في مصرنا الحديثة. ومجمل هذه القصة أن فلاحاً من أهالي الفيوم في منطقة وادي النطرون، كان يقطن قرية تسمى "حقل الملح" وقد وجد أن مخزن غلال أسرته قد أشرف على النفاد، فحمل على قطيع صغير من الحمير حاصلات قريته وسار به نحو العاصمة، وكانت وقتئذ "إهناسية المدينة"، وكان غرضه أن يستبدل غلالاً بحاصلاته هذه. وكانت الحالة تحتم عليه أن يمر من طريق به منزل رجل يدعى تحوتي نخت، وهو موظف صغير من موظفي شريف يدعى رنزي وكان يحمل لقب "المدير العظيم لبيت الفرعون". وعندما لمح تحوتي نخت حمير ذلك الفلاح تقترب منه سولت له نفسه تدبير حيلة لاغتصابها بما عليها، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله، فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرجه ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها من حافة حقله الذي كان وقتئذ مزروعاً قمحاً إلى حافة الترعة التي كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق. وكان ذلك الفلاح البريء، كما تقول القصة، يتقدم في سيره على الطريق العامة التي يسير فيها كل الناس، وهي التي سدها تحوتي نخت المذكور بنشر النسيج عليها- ويلاحظ هنا أن العبارة الأخيرة تشف عن غضب الكاتب وحنقه مما حدث- ولما كان الفلاح يخشى السين في الماء اضطر أن يمشي في الجهة الأخرى في شريط ضيق لم يكن قد غطاه نسيج هذا الموظف بجوار حقل القمح.

وفي أثناء السير التقم أحمد الحمير بضع سيقان من القمح، وبذلك تهيأت الفرصة لتحوتي نخت الماكر للوصول إلى مأربد وكان يترقب ذلك

عن كثب. وفي هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى تحوتي نحت مقدماً له الاحترام والخضوع بألفاظ لا تحط من كرامته. فما كان مت تحوتي نخت المذكور إلا أن قبض على الحمير واستاقها إلى منزله، وكان الفلاح وقتئذ يصيح ويستغيث محتجا على ذلك الفعل في أدب واحتشام، ثم أردفه باحتجاج شديد، وانبرى يقول له: إن طريقي مستقيمة، غير أن أحد جانبيها قد سد، فمن أجل ذلك سرت بحميري على تلك الحافة.

أتغتصب حميري لأن واحداً منها التقم ملء الفم من سيقان قمحك؟ إني أعرب رب هذه الضيعة، فهي ملك رنزي المدير العظيم لبيت الفرعون، وأعرف أنه هو الذي يقضي على كل سارق في هذه الأرض. فهل أسرق في ضيعته؟ فلما أحفظ تحوتي نخت من جسارة هذا الفلاح انتزع فرعاً من شجرة أثل وأخذ يضرب به الفلاح بدون رحمة ولا شفقة غير مبال بصياحه واحتجاجاته المتكررة، واستاق كل الحمير إلى منزله؛ واضطر الفلاح الشقي أن يمكث أربعة أيام يرجو فيها رد الحمير إليه بدون جدوى، وكان يذكر له طول مدة بعده عن أسرته التي أشرفت على الموت من الجوع، وهو لا يأبه لحاله. فلما رأى الفلاح المذكور منه ذلك صمم على رفع شكواه إلى المدير العظيم لبيت الفرعون نفسه، وهو الذي حدث في ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ. وزاد الفلاح شجاعة في رفع شكايته إليه ما اشتهر به من حبه للعدل حتى صار مضرباً للأمثال في عدالته. وبينما كان الفلاح يقترب من المدينة إذ قابله لحسن حظه مدير البيت العظيم المقصود خارجاً من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو سائر في طريقه ليركب في قاربه الرسمي. وعند ذلك استطاع ذلك الفلاح

بما أوتيه من أدب جم وسيطرة على المقام، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم حتى يصغى إليه بضع لحظات في أثناء مسيره لركوب قاربه، فأرسل أحد خدمه لكي يعرف قصة ذلك الفلاح. فلما رجع ذلك الخادم وأخبر المدير رنزي بتلك السرقة التي ارتكبها تحوتي نخت لم يسعه إلا أن يبسط ذلك الأمر على موظفيه ليقولوا كلمتهم فيه؛ فكان جوابهم على تلك السرقة هو الغرض الذي قصد إليه مؤلف هذه القصة؛ فإنه يضع أمام القارئ صورة واضحة للمعاملة الشائعة التي كانت تتبع في مثل شكاية ذلك الرجل الفقير في الدوائر الحكومية؛ إذ نجد زملاء مدير البيت العظيم قد انحازوا إلى جانب مرءوسهم تحتي نخت السارق، ولذلك كان جوابهم على المدير رنزي جواباً ملؤه الفتور قائلين: إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس أعلى خطأ، وأن تحوتي نخت قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من هذا الفلاح. ثم تساءلوا بغضب: هل يعاقب تحوتي نخت بسبب أخذ قليل من النطرون والملح؟ وعلى أكثر تقدير في موضوع كهذا يصدر إليه الأمر بإعادتها وهو بلا شك معيدها إليه.

ومما يلفت النظر هنا في طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير التي سرقت كلية، وهي التي كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعاً. وفي ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفاً على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم. وهكذا تغاضى عنه رجال السلطة وتجاهلوا أمره. (أليست هذه الصورة المخزية تمثل الواقع الآن؟).

وفي تلك الأثناء كان مدير البيت العظيم جالساً يفكر في صمت.

والواقع أن هذا المشهد يمثل لنا باختصار عصوراً من التاريخ الاجتماعي في بلادنا. فمن ناحية يصور لنا طائفة الموظفين الليني الجانب المتملقين وهم في ذلك يمثلون الطراز الغالب في طبقة الموظفين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذي لا صديق له ينصره، وقد اغتصب متاعه، ثم يتمثل فيه صورة الصيحة التي كانت أول مظهر لطلب العدالة الاجتماعية في ذلك الوقت السحيق الذي يرجع إلى نحو خمسة وأربعين قرناً مضت.

وهذا المشهد الذي وضعه هذا الكاتب أمامنا في صورة قصصية يعد من أقدم الأمثلة التي تدلنا على المهارة المصرية في تصوير المبادئ المعنوية في شكل مواقف ملموسة، وهي التي صورت بشكل مدهش في أقوال عيسى عليه السلام التي جاءت بعد ذلك بقرون عدة.

غير أن الفلاح لما رأى أن مدير البيت العظيم لم يحر جواباً على كلامه حاول مرة أخرى أن ينجي نفسه وأسرته من الموت المحقق الذي كان يتهددهم جميعاً بسبب الجوع، فتقدم خطوة إلى الأمام وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذي كانت قصته الآن بين يديه متمنياً له سياحة طيبة عند نزوله في قاربه، ثم لهج بشهرة مدير البيت العظيم في فعل الخير، وذلك ما كان يعلل به نفسه عندما رفع قضيته إليه، فكان يقول له:

"إنك والدا ليتيم، وزوج الأرملة، وستر من لا أم له. دعني أضع اسمك في هذه الأرض فوق كل قانون عادل. يأيها القائد الذي لا يشوبه

الطمع، ويأيها الرجل العظيم الذي يتجنب الصغائر، ويحطم الظلم، ويثبت الحق، أجب للصيحة التي ينطق بها فمي. فإذا تكلمت فعليك أن تسمع. أقم العدل! أنت يا من قد مدحت ويا من يمتدحه الممدوحون. اكشف عني الضر. انظر إليّ! فإني أحمل أثقال فوق أثقال، حقق شكايتي فإني في حيرة!"

وقد كان مدير البيت العظيم يشعر بسرور عظيم من لباقة الفلاح الخارقة للعادة، إذ كان يعبر بحسن منطق وفصاحة لسان، حتى لقد تركه دون أن يفصل في قضيته برأي، وذهب على الفور إلى البلاط حيث قابل الفرعون وقال له: "يا سيدي! لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين ممن يحسنون القول بحق". فسر الفرعون سروراً عظيما، وكلف مدير البيت العظيم هذا أن يصحب الفلاح معه دون أن يفصل في قضيته برأي طمعاً في أن يرتجل له الفلاح خطباً أخرى. وكذلك أمر الفرعون بتدوين أقوال هذا الفلاح بدقة، وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزم لأمر معاشه، وأن يرسل خادماً إلى قريته ليتحقق من أن أسرته ليست في حاجة لي شيء خلال تلك الفترة التي سيكون الفلاح فيها بعيداً عن مسقط رأسه.

وقد كانت نتيجة ذلك أن أخذ الفلاح يلقي على أسماع ونرى مدير البيت العظيم ما لا يقل عن تسع شكايات.

وعند هذه النقطة تنتهي هذه المقدمة التمثيلية، وقد كان الغرض منها أن تضفي على ذلك المقال الاجتماعي الذي كان هدفه الإصلاح ثوباً يجعله في صورة قصة. وبعد ذلك نبتدئ الشكاوى أو الخطب التسع

التي يتألف منها جميعاً ذلك المقال الاجتماعي. وهذه الخطب تكشف لنا أولاً عن خيبة الأمل المحزنة التي صادفها الفلاح في اعتقاده بشهرة ذلك الرجل العظيم التي كان يعرف بها، وهي أنه لا يحيد عن العدل. فنجد الفلاح يبتدئ خطبته الثانية بالتقريع اللاذع فيقاطعه "رنزي" مهدداً إياه. أما في خطابه الثالث فإنه يعود إل مدائح كالتي ذكرها أول رفع شكواه إلى رنزي. فاستمع لما يقول:

"يا سيدي إنك رب السماء في صحبة حاشيتك، وإن قوام بني الإنسان منك؛ لأنك كالفيضان وأنت "جعي" (أي إله النيل)، الذي يجعل المراعي خضراء، ويمد الأراضي القاحلة. ضيق الخناق على السارق، ودافع عن الفقير، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكي، واحذر من قرب الآخرة، وأرعب في أن تعيش طويلا؛ لأن المثل السائر يقول: إن إقامة العدل هو نفس الأنف، وأوقع العقاب على من يستحق العقاب. وليس هناك شيء يماثل استقامتك. هل الميزان يتحول؟ وهل يميل لسانه إلى جهة؟...

"لا تنطقن كذباً، فإنك الميزان، ولا تنكمش؛ فإنك الاستقامة. تأمل! إنك على مستوى واحد مع الميزان فإن انحرف انحرفت أيضاً. ولا تحيدن، بل أدر السكان، وأقبض على حبل الدقة. ولا تغضبن، بل أعمل ضد المغتصب، وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعاً. إن لسانك هو ثقل الميزان، وقلبك هو ما يزن به، وشفتيك ذراعاه. فإذا سترت وجهك أمام الشرس، فمن ذا الذي يكبح الشر؟" وهذه الموازنة بين أخلاق مدير البيت العظيم رنزي وبين الميزان تظهر مرات متكررة في خطب ذلك الفلاح.

أما العبرة التي تؤخذ من تلك الخطب فواضحة؛ إذ أن مفتاح طريق الحق كان بأيدي الطبقة الحاكمة، فإذا أخفقوا في إتباعها ففي أي مكان آخر يمكن الحصول عليه؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التي لا تخطئ. ومن ذلك نعلم أن الموازين كانت تؤلف رمزاً أصبح شائع التداول في الحياة المصرية، حتى إن كفتي الميزان كانتا على ما يظهر قد صارتا بمثابة وسيلة دقيقة لتصوير محاكمة كل روح في عالم الآخرة.

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الموازين قد وجدت لأول مرة في ذلك المقال في تاريخ الأخلاق، وقد بقيت مستعملة في يد العدالة المطلقة إلى يومنا هذا. وترجع نشأة هذا الرمز إلى الظهور أولاً بين رجال الفكر في العهد الإقطاعي بمصر، أي منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت. ولم يكن الأمر مقصورا على استعمال الميزان بوجه عام بمثابة رمز للاستقامة في ذلك العهد الإقطاعي فحسب بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضاً.

ويجب أن نلاحظ هنا كذلك أن الفلاح كان يذكر مدير البيت العظيم بضرورة ظهوره أمام محاسبة الميزان الذي لا يتحيز إلى جهة؛ إذ يقول له: "احذر قرب يوم الآخرة". وهذا المثل من الأمثلة القليلة التي يلجأ إليها تحذيراً من الظلم وإشعاراً بما يتعرض له الظالم من المسئولية أمام الله في الحياة الآخرة.

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح لمدير البيت العظيم وهو يلقيها

واقفاً أمام القصر في شدتها أكثر مما يمكن احتماله، حتى لقد أرسل خادمين ليجلدا ذلك التعس. ولكنه على الرغم من ذلك انتظر قدوم رنزي كرة أخرى بقلب ثابت لا يزعزعه خوف الضرب أو التعذيب. وعندما وقع بصره عليه واجهه بخطبة رابعة ثلم تلاها بخطبة خامسة. وبالرغم من أنها كانت أقصر خطبه كلها فإنها كانت ألذعها في الاتهام. فاستمع لما يقول: "لقد نصبت لتسمع الشكاوى، وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن ما تفعله هو أنك تتحالف مع اللص. والإنسان يضع ثقته فيك، ولكنك أصبحت معتدياً. لقد نصبت سداً للفقير، فاحترس خوف أن يغرق. ولكن تأمل! إنك تياره السريع، وفيضانه الجارف!".

ولكن رنزي كان لا يزال ملازماً الصمت؛ من أجل ذلك اضطر الفلاح أن يبتدئ خطابه السادس لاجئاً من جديد إلى عاطفة العدالة التي اتصف بها مدير البيت العظيم، وإلى ما اشتهر به من الرأفة. فاستمع لما يقول:

"يا مدير البيت العظيم، يا سيدي!... إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل، وتعلو بالصدق، وتشجع الحسنة، وتمحو السيئة، كالشبع عندما يأتي يقضي على الجوع، وكالكساء يقضي على العري، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة، وتدفئ كل من شعر بالبرد، وكالنار التي تسوي النيء، وكالماء الذي يطفئ الظمأ، انظر بعينيك! إن المحكم متلاف، والمصلح موجد للفساد، ومهدئ الخلافات خالق للألم، والمغتصب يحط من قدر العدالة".

ولما لم يجد الفلاح جواباً من رنزي على استعطافه اهتاج من جديد وأخذ يقول: "إنك متعلم، وإنك ماهر، وإنك عادل، ولكن ليس في النهب والسرقة. والآن مثلك مثل كل بني الإنسان، كل أعماله ملتوية ومفسد الأرض كلها يمشي مستقيما إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجاً)، وزارع الشكر يروي حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد"!.

ومع ذلك فإن هذه الاتهامات لم تحرك ساكناً عند مدير البيت العظيم. ولذلك أخذ الفلاح التعس يفتح فمه بصوت عال، وألقى شكواه السابعة. فيبتدئ كالمعتاد بمدح مدير البيت العظيم، فيقول له: "إنك سكان البلاد قاطبة، والأرض حسب أمرك، وإنك معادل للإله تحوت (إله العلم والمعرفة والمواقيت) تقضي دون أن تنحاز إلى جانب. يا سيدي! كن صبوراً حتى يمكن الإنسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة. ولا تجعلن قلبك جموحاً، فإن ذلك لا يليق بك، فإن الرجل البعيد النظر يكون حليما". ثم ترى الفلاح يرجع فجأة على الفور إلى وصف حالته التعسة فيقول: "حقًّا! إن جوفي لملآن، وقلبي لمفعم، وقد طفح من جوفي تقرير عن تلك الحالة. لقد كان صدع في السد فتدفق منه الماء، وقد انفتح فمي للكلام". غير أن استمرار تغاضي ذلك الحاكم وعدم اكتراثه مع ما هو مشهور عنه من عدالة ورأفة بالضعفاء، قد زاد في غيظ ذلك الفلاح التعس إلى حد جعله يتخذ من صمت مدير البيت العظيم عنه شاحذاً لعاطفته، ويرى فيه دافعاً يطلق عقال ألسنة أكثر الناس لكنه وعياً، فيقول مقرعاً إياه: "إن خمولك سيضلل بك، وشراهتك ستغشك،

وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداء. ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً آخر مثلي؟ وهل الشاكي يقف على باب بيت الخامل؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته، ولا نائم قد أيقظته، ولا مكتئب قد نشطته، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته، ولا جاهل قد جعلته يعرف، ولا غبي قد علمته. ومع ذلك فإن الحكام هم الذين يقصون السوء، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أي شيء كائن، ويصلوا الرءوس التي قد فصلت عن أجسامها!".

ولما لم يكن في مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه وشدة حنقه؛ أخذ يلقى خطابه الثامن، واستمر في تهديد رنزي إذ يقول: "يأيها المدير العظيم يا سيدي! إن الناس يتحملون السقوط السحيق بسبب الطمع، والرجل الجشع يعوزه النجاح، ولكنه ينجح في الخيبة! إنك جشع وذلك لا ينسجم معك. وإنك تسرق وذلك لا يفيدك، أنت يا من يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة. ذلك لأن ما يقيم أودك في بيتك، ولأن جوفك قد ملئ... آه! أنت يا من يجب عليه أن يقضي على اللص ويا من يقصي الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء، وهم حمى الساخط. والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب... إنك تملك حقلك في الريف، وضياعك التي وهبها لك الملك، وخبزك في المخبز، والحكام يعطونك ومع ذلك تغتصب! هل أنت لص؟ هل يحضر إليك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (المسروقة)؟"

ومع كل ما وجهه هذا الفلاح من تقريع واتهامات لاذعة إلى هذا الحاكم فإنه لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة؛ ولذلك يعود من جديد

مطالباً بها في أعظم فقرة فاه بها في ذلك المقال العظيم؛ إذ يقول: "أقم العدل لرب العدل، والذي عدل عدالته موجود. وأنت يأيها القلم، وأنت يأيتها البردية، ويأيتها الدواة ويا تحوت (رب العلم) ابتعدوا عن عمل السوء، وعندما يكون الحسن حسناً فالأمر إذن حسن. غير أن العدل سيكون إلى الأبد، ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة، وسيدفن وتطويه الأرض، أما اسمه فلن يمحى من الأرض، بل سيذكر للخير. وهكذا القانون التي رسمته كلمة الله العليا".

على أن السؤال الذي ينشأ عن ذلك طبعاً بعد إلقاء هذه الكلمات الخارجة من الأعماق هو: ألا يزال هناك مجال للظلم بعد ذلك؟ ولقد أخذ الفلاح يسأل هذا السؤال. فاستمع إليه وهو يسأل:

"هل هو ميزان؟ إذن لا يميل. هل هو لسان الميزان؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لا يزن غشا)". ثم يستمر قائلا: "وإذا حضرتُ أو حضر غيري فخاطبه ولا يجيبن كإنسان يخاطب رجلا صامتاً، أو كإنسان يهاجم من لا يمكنه أن يهاجم... إنك لا تظهر الرحمة... إنك لا تعطيني مكافأة على تلك الخطب التي تخرج من فم الإله نفسه. انطق بالعدل، وأقم العدل، لأنه خطير وعظيم ويعيش طويلا، والثقة به قد عرفت، فهو يؤدي إلى العمر الطويل المحترم. هل الميزان يحيد؟ فإذا كان الأمر كذلك فإن ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان ما يوزن. ولا يجوز وجود الظلم مع القانون".

ولما لم يفه رنزي بجواب على هذه الكلمات السامية، رفع الفلاح

صوته. عالياً للمرة الأخيرة وألقى مرافعته النهائية عن قضيته اليائسة، وهي خطبته التاسعة التي يذكر فيها مدير البيت العظيم بخطر الكذب والغش إذ يقول: "وإذا مشى الكذب في الخارج فإنه يضل، ولا يعبر في قارب التعدية، ولن يتقدم قيد أنملة. أما من تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال، ولن يكون له وارث على الأرض. ومن يسيح به فيتخذه بضاعة فلن يصل إلى بر، وسفينته لن ترسو على مرفأ..." ثم يختم الفلاح خطبته بالكلمات التالية:

"لا تكونن متحيزاً، ولا تصغين لقلبك، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته، ولا تردن إنساناً يشكو إليك، وأترك هذا الخمول حتى يمكن أن تروى حكمتك القائلة "افعل الخير لمن يفعله لك" وأن تصل إلى مسامع كل الناس، وحتى يرجع إليك القوم فيما يتعلق بالمطالبة بالحق. والأصم عن العدل لا رفيق له. والرجل الجشع لا فراغ لديه. وذلك الذي يوجه إليك التهمة يصير رجلا فقيراً، والفقير يصير شاكياً، والعدو يصبح ذابحاً للفلاح. تأمل! إني أشكو إليك، وأنت لا تسمع شكواي، فسأذهب وأشكو إلى أنوبيس".

ولما كان أنوبيس هو إله الموتى، فإن الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر. وعندئذ يرسل مدير البيت العظيم خادمه على الفور ليجئ بالفلاح أثناء عزمه على الرحيل. وإذ ذاك تبادلا معاً بعض العبارات المبهمة في المتن. على أن رنزي في الوقت نفسه كان قد دوّن في بردية أخرى كل شكايات الفلاح حسب تواريخها.

والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من تلك البردية. ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها كانت ممزقة كل ممزق. ويمكننا أن ندرك أن لفائف البردي التي أعطاها أمناء أسرار رنزي إياه هي التي حملها رنزي هذا إلى الملك. وقد وجدها الملك سارة لقلبه أكثر من أي شيء في البلاد، وبعد ذلك يأمر الفرعون مدير البيت العظيم أن يفصل في قضية الفلاح، وإذ ذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذي يحدد ممتلكات ذلك الفلاح الرسمية، ويبين موقفه القانوني والاجتماعي، وعدد أفراد أسرته، ومقدار ثروته، ثم يعقب ذلك في البردية بعض كلمات مفتتة يقل عددها عن اثنتي عشرة كلمة، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن تحوتي نخت قد عوقب، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيها الفلاح.

ولأمر هام نجد أن أشراف رجال البلاط الفرعوني منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت مهتمون بما فيه الكفاية لإسعاد حال الطبقات الدنيا، حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات والاعتناء بحفظها، وهي لم تكن في الواقع إلا دعاية لنظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء. وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لإعلام حرب مقدسة مطالبين فيها بالعدالة الاجتماعية. وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعاً في قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال. وبالرغم مما يجده الأثري من الغموض المستمر في لغته وأسلوبه البليغ، واستعاراته القوية، وتشبيهاته القريبة مما صير فصاحة ذلك الفلاح غامضة المعنى في أذهان عالمنا الحديث، فإن ذلك المقال قد اكتسب مكانة جعلته

أدباً من الطراز الراقي في عصره. ولا شك في أنه كتب بالأسلوب الذي كان مستحسنا عند أهل ذلك العصر؛ على أن ذلك التهكم اللاذع الذي يبدو في نواحيه كان مما يزيد في شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتهكم، ولكنه مع ذلك كان أدباً يرمي إلى غرض خلقي. وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويراً حياً ناطقاً عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذ لم يكن يشد أزرهم ملك عادل حازم رءوف عليم بخبايا الأمور يعرف ما يجرى في مختلف بقاع بلاده من أصدقاء أوفياء لا موظفين متملقين يصورون له الحقائق مقلوبة ويعرضونها كما تشاء أهواؤهم وتتفق مع مصالحهم ومصالح من يلوذ بهم. والآن نسائل هل أعطى الكاتب الاجتماعي القديم درساً لمصري الجيل الحاضر؟

....

(*) الكاتب المصري – مارس – ١٩٤٧

كا- ام- نفرت (*)

عاش الكاتب "كا- إم- نفرت" في نهاية الأسرة الرابعة حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. وعندما توفى دفن في مصطبة نحتت نحتاً جميلاً في جبانة الجيزة.

وقد تولى بجانب وظيفته ككاتب، منصب المشرف الأعلى على كهنة "الكا" المخصصين اتصال بعبادة الملكة المتوفاة. فكان من واجبه أن يشرف على تقديم القربان إلى مقبرتها في أيام الأعياد الخاصة، كما أنه كان مسئولاً عن حراسة مقبرتها وتنظيم الدخل الخاص بحاجيات المقبرة وكهنتها. ومن المحتمل أنه تولى وظيفة الكاتب الخاص للملكة مدة حياتها لأن الواجبات الآنفة الذكر لا تسند إلا لشخص معروف لديها بإخلاصه وأمامنته.

وكانت حراسة المقابر الملكية قاصرة على أشخاص اشتهروا بالكفاءة والجدارة لأن وفرة الكنوز التي كانت تحويها تجعلها قبلة أنظار لصوص المقابر.

ومما يؤسف له أن مقبرة "رخت- رع" لم تسلم من مصير معظم مقابر جبانة الجيزة، إذ أنها نهبت في العصور القديمة، وعلى الأرجح في نهاية الأسرة السادسة عندما ضعفت سلطة البيت الحاكم وقامت الثورة في البلاد عندئذ انقطع الدخل الخاص بحاجيات المقابر وحراس

الجبانة، فثار الكهنة وخدمة "الكا"– بسبب الفقر– ونهبوا الكنوز المخبأة في الحجرات السفلية للمقابر التي كانوا حتى ذلك الوقت يقومون بحراستها وخدمتها. نهبوا كل الأشياء المصنوعة من الذهب والأحجار النفيسة والعظام، أما التماثيل والنقوش وغيرها من الأشياء عديمة القيمة في السوق أو صعبة الحمل فقد حطموها أينما وجدوها.

وقد كان هذا الحقد شديداً حتى أننا نعجب إذ نجد شيئاً من هذا العصر قد سلم من ثورة الجنون التي أصابت هؤلاء الكهنة.

وأنه لمن المحزن أن نجد في مقبرة الملكة "رخت– رع" قطعاً مهشمة من الأواني المرمرية الجميلة والفخار الدقيق الصنع، وموائد القربان المصنوعة من حجر الدبوربت مما يدل على الذوق الفني البديع الذي أظهرته الملكة المتوفاة في أعداد "بينها الأيدي".

وكانت هذه الملكة ابنة لخفرع وزوجة لملك يظن أنه "متكاورع". ومظهرها يدل على أنها تملك كل الملامح التي تميز هذه الأسرة والتي نلاحظها بجلاء في التمثال الضخم المصنوع من حجر الدبوربت للملك خفرع وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري، فلها نفس التقاسيم الرائعة النبيلة والعظمة الهادئة التي تمتاز بها حتى اعتقد الناس فيها واعتقدت هي في نفسها أنها من أصل إلهي.

وتقع مقبرتها الكبيرة الفاخرة على مقبرة من قبر "كا– إم– نفرت"، ومما يدل على اعترافها بخدمات كاتبها أنه لم يكتف بأن يبني جدته بالقرب من لحدها بل أنه منح شرف رسم صورتها على قبره، فعلى

المدخل تراها ممثلة وهي واقفة تشم أريج زهرة لوتس ذات ساق طويلة. وكانت تتحلى بشعر مستعار طويل فوق شعرها الطبيعي. وترتدي ثوباً محكماً على جسمها قد صنع من مادة شفافة تنم على تقاسيمه البديعة اللطيفة. أما "كا- إم- نفرت" فقد وقف أمامها يحرق البخور. ونجده ممثلاً بحجم أصغر بكثير من حجم سيدته الملكية وهذا تقليد جرى به العرف عندما يمثل أصحاب المكانة الوضيعة في حضرة سادتهم في منظر واحد.

ونستطيع أن نحكم من بناء مقبرته الجميلة وبخاصة من النقوش البديعة التي تزينها، ومن تمثاله الرائع، بأن الملكة قد قدمت إليه خدمات مثالها ورئيس بنائيها. وهذا شرف كان يسغه في بعض الأحيان الفرعون وأفراد الأسرة المالكة على الموظفين الكبار الذين لهم حظوة خاصة.

وكان "كا- إم- نفرت" يلقب أيضاً بلقب "رئيس مصنع المراكب" وبذا كان مسئولاً عن بناء المراكب الملكية.

ومقبرته هي من المقابر النادرة في حفائرنا التي نستطيع أن نحدد تاريخها تحديداً صحيحاً، لأن الملكة "رخت- رع" ذكرت أنها ابنة خفرع وبذا يمكننا أن نحدد تاريخ هذه المقبرة في الفترة التي تقع بين نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة.

وقد كشفنا في سراديب مقبرته تمثالاً صغيراً من الحجر الجيري "لكا- إم- نفرت" وكان هذا التمثال في الأصل ملوناً، وهو على الرغم من صغر حجمه يعد من أهم التحف الفنية في الدولة القديمة، وهو جدير بأن يقف إلى جانب التمثال المشهور للكاتب الموجود الآن

بمتحف اللوفر أن لم يعقه.

وتمثال "كا– إم– نفرت" يمثل صاحبه وهو يؤدي وظيفة الكاتب، إذ نراه جالساً القرفصاء على الأرض وبين يديه ملف منشور من ورق البردي وهو يلبس رداء قصيراً وشعراً مستعاراً له مفرق في وسطه وقد أسدل معظمه على كتفيه. وقد نحته المثال في وضع يقظة وانتباه إذ أنه يجلس ووجهه المرتفع قليلا وعيناه الواسعتان واليقظتان وفمه المبتسم تواجه الناظر إليه. ونستطيع أن نتصوره في هذا الوضع جالساً أمام سيدته الملكية على استعداد تام لتلقي أوامرها.

وقد أبدع المثال في إظهار أجزاء التمثال إبداعاً يستحق الإعجاب، فوضع الجسم، وعضلات الصدر والكتفين، وموضع اليدين وهما قابضتان على الملف البردي، ومعالجة عظام وعضلات الساقين المقرفصتين مما يفوق الوصف. وقد عثرنا على تماثيل أخرى "لكا– إم– نفرت" وكلها متشابهة الملامح غير أننا لا نستطيع أن نقارن أحدها بذلك التمثال الصغير من حيث دقة الصنع وصدق الطبيعة. وهذه حقيقة تؤيد فكرة صنع هذا التمثال بيد فنان موهوب لابد أنه قد تولى وظيفة مثال القصر.

من النادر أن يسعدنا الحظ بكشف مثل هذا التمثال الرائع من بين حفائر الماضي المجيد.

...

(*) المجلة الجديدة– نوفمبر – ١٩٣٩

الكاتب المصري نشأته ومكانته في المجتمع (*)

لقد مر طور على الإنسان كانت غرائزه فيه هي التي توحي إليه ما يعمل وما يترك؛ فلم يكن يحس شيئاً عن السلوك ولم يكن يفقه شيئاً عن الأخلاق، ولم يكن يحسب حساباً لما يجب أن يُفعل وما يجب أن يُترك، بل كان يعيش هائماً على وجهه: يسعى إلى الطعام كلما وخزته غريزة الجوع، ويكرع من الماء إن ألح عليه الظمأ، غير مدرك سبباً لما يفعل ولا نتيجة لما يذر.

لم يقف الإنسان عند هذه الوحشية التي كان عليها في عصر ما قبل التاريخ، بل سار على مركب من تجاربه الشخصية نحو التقدم حتى تراءت له لمع من عناصر الأخلاق فكان ذلك تقدما هائلا في حياة البشر، ثم سار الإنسان قُدمُاً في طريقه الموفق حتى وصل إلى مرتبة أدرك فيها أن من الأخلاق ما يستحب ومنها ما يستهجن؛ فصار تقدمه بذلك أعظم خطراً وأقوى أثراً لأنه سما به درجة نحو الوعي الإنساني.

هذا الوعي، أو بتسمية أخرى هذا الضمير، استمر في نموه حتى صار قوة اجتماعية كبيرة لها تأثيرها في عالمها. ولها أيضاً تأثير رجعي على تلك البيئة الاجتماعية المبكرة التي خلقت هذا الوعي وأخرجته إلى عالم الوجود: فصياد ما قبل التاريخ بدأ حياته يكافح بين ذوات الظفر

والحافر، واستمر لا يعرف من الحياة غير الكفاح في سبيل القوت والبقاء. واستمر على تلك الحال طويلا إلى أن أحس هاتفاً يبدو خافت الصوت والأثر ينبعث من نقطة بعيدة في باطنه لا يكاد يستبينه أو يدرك كنهه، إلا أنه في جملته يختلف عن الهاتف إلى الطعام إن ألم به الجوع والهاتف إلى الدفاع إن ملأه الخوف وأحيط به. ثم أخذ هذا الهاتف يظهر ويستبين ولكن في بدء وتثاقل واطمئنان حتى استوى على ساقيه فكبر أثره وعظم خطره. ولم يقتصر تأثيره على تحريك إحساس واحد تاركاً بقية المشاعر هادئة في نومها مطمئنة، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية في وقت واحد معاً.

فمن أين نبت هذا الهاتف؟ وأني له أن يكتسب تلك القوة الآمرة المسيرة للإنسان؟ وكيف نهض حتى أصبح قوة راسخة مسيطرة في المجتمع الإنساني؟ إنه الضمير! وإن ظهوره لتقدم عظيم، وقلب لما تواضع عليه الناس في حياتهم وطرق معايشهم، ولكنا لم نستطع أن نصل إلى كنهه أو نتتبع أطواره إلا عند انبثاق فجر التاريخ حين جرى القلم بتدوين الوثائق وتسجيل الأفكار وتصوير ما تكنه نفس الإنسان عن تجارب ماضيه البعيد.

على ضوء فجر التاريخ رأينا الوعي الإنساني وعرفنا التطورات التي صار بها قوة اجتماعية أنتجت عصر الأخلاق. قد استغرق هذا التطور كما يقول علماء الاجتماع والجيولوجيا آمادا طوالا لا تقل عن ألف ألف من السنوات، واستطاع الإنسان في نهايتها أن يبني تلك الحياة الراقية التي أطل منها برأسه عصر الأخلاق.

وصلنا إذن إلى الضمير في فجر عصر التاريخ؛ لأننا قرأنا للقوم منذ فجر عصر التاريخ؛ فهذا العصر يحدد لنا بداءة الكتابة. وقد ثبت من البحوث العلمية والكشوف الأثرية التي ظهرت حتى الآن في كل بقاع العالم أن أول من خط بالقلم هو المصري، وأن الفضل للمصريين في اختراع الكتابة والتصرف فيها، وذلك منذ ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد.

اتخذ الكاتب المصري أول أمره صحائفه من الأحجار يبثها أفكاره، ويسجل عليها آراءه، ثم لجأ إلى أوراق البردي وإن غلا ثمنها لسهولة حملها وطيها، فخرج العالم بفضل الكاتب المصري من جهالة عصر ما قبل التاريخ الذي غمر العالم بموجه المظلم نحو ألف ألف من السنوات إلى عصر التاريخ ذلك العصر المشرق الذي مازلنا في بداءته.

منزلة الكاتب المصري القديم

إن الكاتب المصري الذي كان أول إنسان خط بالقلم وضمن للحياة العقلية البقاء، كانت له مكانته الرفيعة عند قومه فأحلوه المحل الأول في صفوفهم، وبذلك قدروا العلم وأرسوا بنيانه، وأجُلوا الكاتب المثقف وأعلوا مكانه، فمن يبرع في الكتابة فله عندهم أسمى المراكز وإن لم تسمح مواهبه الأخرى بذلك، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا إذا كان كاتباً. من أجل ذلك رأينا كبار الموظفين القدماء يلحون في أن يصوروا أنفسهم كتَّاباً؛ لأن الكتابة في نظرهم موضع الشرف والامتياز، والكتابة سلم يعرج فيه الكاتب إلى مركز الوزارة. والرجل الذي يستطيع الإبانة عما في ضميره بأسلوب جميل هو ذلك الشريف المهذب الذي

تتفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة، فكم من وزير في الدولة المصرية القديمة بدأ كاتباً، وكم من منصب رفيع دلف إليه الكاتب وأغلق دون غيره. ومن هنا شملت الكتّاب موجة من الغطرسة والكبرياء وراحوا بُدِلّون على غيرهم بمركزهم الاجتماعي. والكبرياء وإن كانت في ذاتها مكروهة فإن المثل العليا التي رسمتها طائفة الكتّاب للموظف الذي يعتد بنفسه ويحترم رأيه ومبدأه ويرتفع بكرامته، جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف، ونعترف لهم بأنهم أول من رسموا للموظف خطة الأمانة والحق، وأنهم جعلوا من واجبه أن يكون كالميزان لا يحيد، عادلا ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم، حاذقاً يعرف كيف يتغلب على الصعاب، ويشق طريقه بين أعظم الصخور وأمنع العقاب.

وكانت آراء الكاتب تحترم في مجلس الشورى، وكل قول له يجب أن يقدر؛ فقوله الفصل، ورأيه القاطع، وحرفته أسمى الحرف وأعلاها.

بهذه الروح كان الموظفون يعملون، كما نشئوا الشباب من طائفتهم على هذه المبادئ نفسها.

ومجمل القول أن الكاتب المصري القديم كان مثاليًّا في مبادئه وخططه وطرائقه في الحياة، وأنه كان رفيع القدر بين قومه، وأنه رسم للأحداث من الكتّاب خطة قويمة عمادها الحق والواجب، وأن له الفضل في اختراع الكتابة من قديم، فمكننا من متابعة الحياة العقلية منذ عصر التاريخ إلى الآن، وأن اللفظ (سش) بمعنى كاتب وإن لم يظهر إلا في عهد الأسرة الثالثة فإنه من غير شك قديم العهد لاشتقاقه من مادة كتب

القديمة. ذلك إلى أن لفظ (حرسشتا) بمعنى كاتم السر أو سكرتير ظاهر في الألقاب الحكومية منذ الأسرة الأولى أي منذ بدء استعمال الكتابة، فلا مراء في أن المصريين أول الكتّاب في العالم.

إعداد الكاتب المصري القديم

لم نكشف لنا التربة المصرية عن وثائق صريحة تصف لنا المدرسة المصرية ونظامها ومنهاجها، وغاية ما عثرنا عليه إشارات تدل على وجودها؛ ففي إحدى مقابر الدولة القديمة وجدنا لقب "معلم أولاد الملك". ويرجح أن مدارس تلك الدولة كانت ضمن مباني المعبد أو في عاصمة الملك. وقال لنا "خيتي" صاحب التعاليم المشهورة صراحة: "إن مدارس الدولة الوسطى كانت في مقر الملك"، كما ذكر "آني" في تعاليمه جملة تشعر بأن المدن كانت تضم بين جدرانها مدارس. أما مدارس الدولة الحديثة فيظهر أنها كانت على درجتين: الأولى ما نسميه نحن المدرسة ويسميه المصريون القدماء "بيت التهذيب". ومنهاجها تعليم الكتابة والأدب القديم على لوحات من الخزف وشظيات من الحجر الجيري (استراكا) توفيراً للبردي الغالي الثمن. وقد أسعدنا الحظ بمعلومات عن مدرسة من هذا النوع كانت ملحقة بالرمسيوم وهو المعهد الذي بناه رعمسيس الثاني للإله أمون في الجهة الغربية من طيبة. وبدرس القطع الخزفية التي كان يكتبها تلاميذها ويلقونها في هذا المكان وجدنا أنها تحتوي على موضوعات إنشائية تنتسب لعصر الدولة الحديثة، وعلى مقتطفات من كتب أدبية ثلاثة هي: التعاليم المنسوبة إلى الملك أمنمحات الأول، وتعاليم "خيتي بن دواوف"، وأنشودة النيل، وكلها من

مؤلفات الدولة الوسطى. ومن الغريب أننا وجدنا هذه القطع الثلاث منسوخة على برديتين ترجعان إلى أصل منفى، وأن مختارات منها وجدت مكررة من أمكنة مختلفة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت نصوصاً مقررة تحفظ وتكتب.

وإذا اجتاز التلميذ الدرجة الأولى من التعليم قيد كاتباً في إدارة حكومية. وهنا تأتي الدرجة الثانية إذ يتخذ من كبار الموظفين الذين حذقوا فن الكتابة أساتذة له يتلقى عنهم ويتخرج في دواوينهم ولا يضيرهم وإن كانوا رؤساءه المباشرين أن يتحملوا هذا العبء؛ فإنما هي ضريبة العلم يؤدونها لمن بعدهم كما استوفوها ممن قبلهم. وكان المكان الذي يعلمّون فيه يسمى "بيت الحياة". ومن الجائز أن يحظى الإنسان بشرف تعليم ابنه بشرط أن يكون من كبار الموظفين وحملة القلم. وسادت هذه الطريقة عهد الدولة القديمة؛ فهذا "بتاح حتب" الحكيم المصري العظيم وصاحب الأمثال والحكم الرائعة يطلب في تواضع من الفرعون السماح له أن يتولى بنفسه تعليم ابنه متى يخلفه في وظيفته. واستطاع كثير غيره من الكتّاب الذين أتوا بعده في عصره وفي العصور التي تلته أن ينالوا هذا الشرف فيتولوا بأنفسهم تعليم أبنائهم.

وكان الطالب المصري مجداً، ولم يقف نشاطه عند نقل بعض سطور مما فرض عليه بل قد استطاع بعض الطلاب أن يكتب ثلاث صحائف في يوم واحد على ما في الكتابة على البردي من صعوبة لا تقل عنها طريقة الكتابة المصرية نفسها. ويعني الأستاذ عناية كبيرة بتصحيح أخطاء التلميذ على هامش البردية إذا كان هذا الخطأ متعلقاً برسم

الحروف، أما إذا كان الخطأ متعلقاً بالهجاء مما يفسد المعنى ويؤدي إلى خلط في انسجام العبارة واتساقها فهذا لا يعني به المعلم كثيراً مما جعلنا نعتقد أن درسه تجويد للخط لا تعليم للغة.

ولقد دلتنا النسخ الخطية المدرسية التي آلت إلينا من تراث المصريين القدماء على أن الغرض الأول من التعليم عندهم هو التربية وتخليد الذكر، ويأتي في المرتبة الثانية الإعداد للأعمال التجارية وخدمة الحكومة وحسن الخط والإملاء وتزويق العبارات.

وليس من الغريب أن يكون حسن الخط والإملاء هدفاً من أهداف التربية والتعليم عندهم؛ فإن من يعرف نظام الكتابة الهيرغليفية يدرك مبلغ تعقدها واستعدادها لقبول الأخطاء، ثم يدرك شدة الحاجة إلى جعلها غرضاً يهدفون إليه. ولدينا كتاب يدلنا على عظيم عناية القوم وشدة حرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابة صحيحة، وقد وضعه كاتب اشتهر "بكاتب كتاب الإله في بيت الحياة"، واسمه "أمنموبي بن أمنموبي" وهو غير "أمنموبي" الحكيم المصري القديم، وقد أراد أن يجعل من نفسه كاتباً يعّلم التلاميذ جميع المواد والعلوم المعروفة لعصره، فجعل عنوان كتابه ضخماً يتناسب مع المدى الواسع لأفقه العلمي، فسماه: "التعاليم التي تجعل الفرد أديباً، وتعلم الجاهل علم الكائنات كلها، وكل ما صنعه بتاح (إله الحرف والصناعات)، وما سجله تحوت (إله العلم)، والسماء ونجومها، والأرض وما عليها، والجبال وما تخرجه، والبحار ما تجود به، وما له علاقة بكل شيء تضيئه الشمس، وكل ما ينمو على الأرض".

وينتظر القارئ من وراء هذا العنوان الضخم معلومات ضخمة عن المواضيع التي سماها، ولكن الأمر لا يعدو قوائم مرتبة ترتيباً منطقياً لا بأس به لأسماء وألقاب بعضها معروف وبعضها غير مألوف؛ فيذكر لنا أولاً السماء وما فيها والشمس والقمر والنجوم والجوزاء والدب الأكبر والقرد والمارد والخنزيرة والسحاب والعاصفة والفجر والظلام والضح والفيء إلى غير ذلك من الظواهر والكائنات التي لا عداد لها.

وللوصول إلى خلق القدرة في التلميذ على تنميق عبارته كلف نقل نماذج رائعة من رسائل حقيقية وخيالية ومن نصائح الأعلام من الحكماء وتحذيراتهم.

ولم يكن التعليم مقصورا على طبقة معينة تعد لهذا الغرض، بل كان كل كاتب مصري يحذق فن الكتابة وله قدرة على بذل النصح وشرح قواعد الكتابة والصبر على الإفهام الحق في أن يكون معلماً، ولا يضيره أو يغض من منزلته أن يكون ذا حرفة أخرى. فها هو ذا كاتب خزانة فرعون، ورئيس سجلات الخزانة، وكاتب المصنع، كل منهم يشتغل بالتعليم، ولكلٍّ تلاميذ يأخذون عليه. بل إن المطلع على المباراة الأدبية في "ورقة أنستاسي الأولى" ليرى أن موظف الإصطبل الملكي، معلم ماهر له دراية تامة بتقويم البلدان في عالم المعروف حينئذ، ومهارة في الحساب والرياضة، وقدم راسخة في هندسة البناء. وكان الكتّاب الموظفون يباشرون التدريس أثناء عملهم اليومي لإغرامهم بالتعليم؛ فالمشرف على نحت مقبرة "رعمسيس" التاسع في صحراء "وادي أبواب الملوك" لم يطق صبراً على ترك مهنة التعليم حتى في ذلك المكان القفر

المنعزل، فكان يعطي تلميذه التمارين والواجبات على شظيات من الحجر الجيري المتخلف من النحت، وقد عثرنا منها على نماذج خطابات وقصائد قديمة في مدح "رعمسيس" الثاني وصلوات جميلة لشخص اضطهد ظلماً، كما رأينا يد المعلم فيها قد تناولت بعض الأخطاء بالتصويب والتكميل.

أهداف الكاتب المصري

إن من يمعن في النظر إلى كتب الحكمة المصرية يرى أن غرض الكاتب المصري يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة، فهو يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه، ويبصرهم بنواحي الحياة، ويرشدهم إلى الطريقة السديدة في الحوار والمناظرة، وإلى السبيل الذي يسلكونه ليتغلبوا على خصومهم بالنقاش المنطقي والأجوبة المسكتة. ويرى الكاتب المصري أن من وصل إلى تلك المرتبة كان سعيداً ظاهراً في دنياه مقبولاً في آخرته عند الله. ولقد كان الكاتب يضمن لاسمه الخلود إذا سمت تعاليمه وعلت حكمته حتى لتصير إرثاً لذوي العقول الناضجة يتوارثونها ويتناقلونها. من أجل ذلك كان المصري يتخذ راويته من أعز الناس عليه وأقربهم إليه؛ لأنه كان يرى صروح الحياة جميعها في نظره عرضاً زائلا وعارية مستردة بجوار أدبه الخالد الحي الذي يقرع الزمن في البقاء ويسمو على البروج النحاسية في القوة ومصارعة أهوال الزمان. جاء في كتاب بردي من عصر الرعامسة:

"... ولكن إذا فعلت هذه الأشياء (أي التي ذكرت من قبل)

أصبحت كاتباً حاذقاً. وحذاق الكتاب المتنبئون بالمستقبل والمنتمون إلى عهد ورثة الآلهة قد خلدت أسماؤهم مع أنهم تواروا عنا، ومع أن كل ذريتهم قد أرخى الزمان عليها ذيل النسيان، ومع أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهراماً نحاسية ولا صفائح قبور من حديد، لم يتركوا من خلفهم ذرية ثرت أسماءهم وتخلد ذكرهم، بل تركوا كتباً وتعاليم كانت خلائفهم في الأرض، وتركوا اضمامات البردي لتكون كاهناً مرتلا، وألواح الكتابة لتكون ابناً باراً، وكتب الحكمة لتكون أهرامهم، والقلم ابنهم، وصفحة الحجر زوجهم، وجعلوا الناس كبيرهم وصغيرهم أطفالا لهم لأنهم أساتذة الناس ورؤساؤهم. وإن كانت قبورهم قد درست ونسيت معالمها وانقرض كهنتها فما زالت أسماؤهم تردد لاقترانها بمؤلفاتهم، وتعرج صاعدة في مرقى البقاء والخلود بقدر ما بذل مؤلفها من عصارة ذهنية، وما وصل إليه من عمق في التفكير والإتقان. فكن كاتبا، وضع ذلك في قلبك يبق اسمك. وإني مؤلفا واحداً لأجل فائدة من لوحة قبر منحوتة ومن جدران لحد مؤسسة؛ لأن هذا المؤلف بمثابة مقاصير وأهرام في قلب من يقرءونه".

"إن من الخير أن يبقى اسم الإنسان على أفواه الناس في الجبانة؛ فالرجل يموت وجثته تصير جيفة قذرة، وذريته كلها تصبح تراباً، ولكن الكتب التي يؤلفها تجعله مذكوراً في فم من يراها. وإن كتاباً واحداً لأكثر نفعاً من بيت مؤسس، ومن مقبرة في الغرب، وأجمل منظراً من قصر منيف، ومن نصب تذكاري أقيم لصاحبه في المعبد، فهل هناك مثل "حردادف" أو "أمحتب"؟ كما أنه ليس في عصرنا أحد مثل "نفري"

"وخيتي"، ولا تنس "بتاح- إم- تحوتي"، ولا "خعخبر- رع- سنب". وهل هناك من يماثل "بتاح حتب" أو "كارس"؟ هؤلاء كلهم حكماء تنبئوا بالمستقبل، وقد وقع فعلا ما توقعوه، وقد وجد كلامهم مدوناً في كتبهم، وقد رُزقوا أولاد غيرهم ورثة لهم كأنهم أولادهم من أصلابهم، وقد اختفوا ولكن سحر كتابتهم ما زال نافذ الأثر في كل من قرأ تعاليمهم، ولقد ذهبوا ولكن الكتب التي تركوها جعلت المرء يذكرهم".

فهذه الفقرة الفذة تشير إلى الأثر البعيد الذي يتركه الأديب في نفوس الناس، وإلى منزلته بين قومه. ولا يكون للأديب هذه المنزلة بين المصريين إلا إذا كان للأدب خطره فيهم وقيمته عندهم، حتى إن الأديب ليعتز بأدبه ويحرص عليه أكثر من حرصه على الأهرام المشيدة والصروح الشاهقة. ولقد جاء في تضاعيف هذه الفقرة أسماء أعلام من رجال الأدب المصري القديم: "فحردادف" كان حامل لواء الأدب في عهد الملك "خوفو". وقد عثر حديثاً على جزء من تعاليمه و"أمحتب" الحكيم عاصر الملك "زوسر". ولا نعرف عن الكاتب "نفري" شيئاً. ولقد برهن الأستاذ جاردنر على أن الأديب "خيتي" هو مؤلف التعاليم التي نسبت إلى الحكيم "دواوف" والتعاليم التي نسبت للملك "أمنمحات الأول". أما الشاعر الحكيم "خعخبر- رع- سنب" الذي جاء ذكره في هذه الفقرة فهو من رجال الثورة التي اشتعلت عقب سقوط الدولة القديمة حوالي ٢٠٠٠ ق. م. فأسهم في وصف الكوارث التي حاقت بالبلاد وشجع الخطة التي تصل بالبلاد إلى مأمنها. بقى من هؤلاء الأعلام "بتاح حتب" وهو ذلك الحكيم الذي تعد حكمه وأمثاله أقدم ما عرف حتى

الآن في تاريخ البشر، وهو من رجال الدولة القديمة. وأما "كارس" آخر من أشارت إليه الفقرة فيؤسفنا ألا نعرف عنه شيئا.

منزلة الأدب في المجتمع المصري القديم

نستطيع أن نقول مطمئنين إن الأدب المصري القديم كان له أثره العميق في نفوس المصريين القدماء لا يقل عن أثر ميرابو وزملائه الأدباء في إشعال الثورة الفرنسية، ولا عن أثر مصطفى كامل وعبد الله النديم وسعد زغلول في إيقاظ الشعور المصري في العصر الحديث؛ فإن كتّابنا القدامى أمثال "إبور" و"خيتي" و"خعخبر- رع- سنب" كانوا حين تتفزع البلاد يسكبون من أدبهم فيضاً من الأمن والاطمئنان يهبط على المصريين فيشعرهم برد الراحة، ويؤملهم في عيش ناعم ومستقبل باسم، فيندفعون بتأثير هذا الأدب إلى الغاية التي رسمتها أقلام الكتّاب وهدف إليها المفكرون والأدباء.

وكثيراً ما كان القلم يعمل ما لا يعمله السيف؛ فها هم أولاء الأدباء القدماء ينظمون حملة يتخذون فيها سهامهم من سحر الأدب، ويقومون قبيل الأسرة الثانية عشرة بوصف ما حاق بالأمة من أوصاب وأوجاع، ثم يرسمون صورة مغرية للعهد السعيد الذي ينبغي أن تتمتع به، ويعلقون مجيء هذا العهد على اعتلاء "أمنمحات الأول" عرش البلاد، فإذا بالمليك الجديد يستوي على أريكة الملك، وينتزع الصولجان من سابقه بفضل الأدب وتأثير الأدباء بعد أن عجز السيف عن إقرار النظام واستئصال الفوضى.

وبعد– فهذه منزلة الكاتب المصري، وهذا أثره في العصر القديم، يبعث الراحة والاطمئنان، ويهز العروش ويزلزل التيجان، ويثير الإحن ويقضي على الفوضى، ويغذي العقل والعاطفة. وهو بذلك يبلغ أسمى مراتبه لدى ارقي الدول وأرهفها إحساساً. ويكفينا دلالة على مكانته أن الفرعون إذا ثقلت عليه تكاليف الحياة وأحس وطأة الأعمال الثقال، وتطلعت عينه إلى الراحة والرفه لجأ إلى الكاتب الأديب فيخاطبه في تواضع وتقدير ويقول: "يا أخي. لقد لقيت من عملي هذا نصباً، وإن قلب جلالتي ليتوق إلى من يرفه عنه، فهل لك أن تسوق إليّ من رائع القصص وجميل الحكم ما يرتاح إليه قلب جلالتي؟" فيقول الكاتب في أدب جم: "لبيك يا مليكي". ويعطيه الكاتب من نفسه وروحه وأدبه ما يرتاح إليه مولاه، وينال به عطفه ورضاه.

...

(*) الكاتب المصري فبراير – ١٩٤٦

الزواج الملكي في مصر القديمة (*)

"كانت رابطة الزواج عند الفراعنة، رابطة مقدسة لها حرمتها وجلالها، وكانت تقوم عندهم على الإخلاص ودوام الألفة"

وكانت مصر القديمة– مهد الحكمة والفلسفة في العصور الغابرة– أول الأمم إدراكاً لفائدة الزواج والتبكير فيه، ولدينا في تاريخ مصر القديمة جملة أمثلة عظيمة الدلالة على تعليق المصريين بهذا المبدأ السامي ومراعاتهم له مراعاة دقيقة. ولعل أقرب هذه الأمثلة إلى أذهان القراء زواج الملك الشاب "توت غنخ أمون" بالأميرة الجميلة "غنخس نبا أتن" وهي في سن مبكرة. فهذا الزواج المبكر يرينا إلى أي حد كان يحرص ملوك المصريين القدماء على التبكير في الزواج حتى يكون لهم خلف وذرية يقومون على تربيتهم فينبتونهم نباتاً صالحاً، وينشئونهم نشأة قومية، ويفقهونهم في أمور دينهم ودنياهم حتى يكونوا على أتم استعداد للمهمة السامية الجليلة التي تلقى على كواهلهم حين تؤول إليهم مقاليد الأمور.

وكان الملك حراً في أمر زواجه، فكان يتخير أحياناً شريكة حياته من بيوت الأمراء.. على أننا نجد في ملوك مصر القدماء ميلاً ظاهراً إلى الزواج من بنات كبار موظفي البلاط الممتازين. ولدينا على ذلك جملة أمثلة نذكر منها الملك "بيبي" الأول الذي تزوج ابنة أحد موظفي القصر المدعو "خوى" فصارت هذه الابنة السعيدة تعرف بالملكة "مرار عنخ نس".

غير أن ديموقراطية الملوك تتجلى في الملك "أمنحتب" الثالث الذي تزوج ابنة أحد رجال بلاطه المدعو "يويا" فصارت هذه الابنة السعيدة "تي" ملكة عظيمة على مصر، بل وعاهلة على أكبر إمبراطورية. ولقد بلغ من إعزاز الملك لذكرى هذا الزواج الموفق أن اتخذ عادة جديدة لم تكن معروفة من قبل، وذلك بأن أمر يعمل عدد عظيم من الجعلان نقش عليها ذلك الحادث العظيم. وفي هذه النقوش ذكر "أمنحتب" أصل عروسه كما ذكر اسم أبويها. وهاك ترجمة ما على الجعل: "ليحيى الملك أمنحتب، معطي الحياة، ولتعش الزواج الملكية العظيمة "تي" واسم والدها "يويا" واسم والدتها "تويا". لقد أصبحت زوجة ملك عظيم تمتد حدود أملاكه الجنوبية إلى بلاد النوبة، والشمالية إلى بلاد ما بين النهرين.

ولقد حدث مرة أن كان الملك "رمسيس" الثاني يتجول في رحلة ملكية إلى بلاد ما بين النهرين ليتقبل الجزية من هذه البلاد، فحضر إليه أمير "بختن" ومعه حاشية كبيرة وضع على رأسها ابنته الكبرى التي كانت بارعة الجمال. فما وقع نظر فرعون عليها حتى أعجب بجمالها، وطلب يدها من أبيها، وجعل منها ملكة عظيمة الشأن عادت معه إلى مصر.. إلا أن رمسيس كان مصرياً وطنياً، فما كاد يضع قدميه على أرض بلاده حتى غير اسم زوجته الأجنبي باسم مصري. ويشبه ذلك ما كان من أمر ابنة أمير الحيثيين حين حضرت إلى مصر زوجة لفرعون، فسماها اسما مصرياً كان له أحسن وقع في الأسماء والآذان هو "ماوت نفرو رع".

* * *

وعلى الرغم من قلة ما ورد في النصوص المصرية القديمة عن الزواج عند قدماء المصريين وطريقة الاحتفال، به، إلا أن هذا القليل يكفي للدلالة على عظمة هذه الحفلات وجلالها.. ففي نص خاص بزواج الملك "حرمحب" ورد ذكر مقصورة أقيمت في قصر الملك تجلس فيها العروس. وهي مقصورة فخمة تتيه بما احتوته وضمته بين جنباتها، يتقدم إليها الملك.. فتقوم العروس، وتنحني أمام الملك، ثم تقبله وتقف أمامه. أما في قصة "سنتا" فإن الوصف أكثر تفصيلا مما سبق. وهنا نترك النصوص تتكلم:

"قال فرعون لرئيس البيت: فلتأخذ "أهورى" إلى بيت "نن نفر كابتاح" الليلة، ولتجهزها بكل مستملح وطريف من الهدايا. فأخذوا "أهورى" عروسا إلى بيت "نن نفر كابتاح" وأمر فرعون لها بصداق كبير من الذهب والفضة يعطي لها. ففعل جميع خدم القصر الملكي ما أمر به فرعون. وقضى "نن نفر كابتاح" معها يوماً سعيداً، واستقبل جميع خدم البلاط".

وكانت الملكة في مصر تشغل مركزا ممتازا يخولها الكثير من الحقوق، إلا أنه يقضي عليها في الوقت نفسه بجملة واجبات. فلقد كان لها منزلها الخاص الذي تتبعه هيئة منظمة من الخدم والحاشية، تعادل في عددها ونظامها حاشية الملك نفسه ورجال بلاطة. وكانت الملكة حرة في غدواتها وروحاتها، تخرج حين تشاء وتفعل ما تريد.. على أنها كانت تشارك زوجها في أعماله، فإذا ظهر في احتفال رسمي رأيناها تسير معه.

وإذا جلس يقضي بين الناس كانت إلى جانبه تساعده، وإذا تغيب في حرب فقد تقوم بالحكم بدلاً عنه، تسوس أمور البلاد بما وهبها الله من حكمة، متمثلة بالالاهة "إيزيس" التي أمسكت بزمام حكم البلاد في غياب زوجها "أزوريس"

ذلك لأن رابطة الزواج عند المصريين كانت رابطة مقدسة لها حرمتها وجلالها، وكانت تقضي عندهم بالإخلاص والحب ودوام الألفة. قال الحكيم "بتاح حتب" في أمثاله:

"إذا كنت سعيداً وعاقلاً فهيئ لنفسك منزلا، واتخذ لك زوجة تحبها وتملأ بها ذراعيك، وعليك أن تطعمها وتكسوها، ولتدخل السرور إلى قلبها في حياتك، فذلك خير وأبقى، ولتكن رقيق الطبع دمث الأخلاق، فإن اللطف يفعل في نفسها ما لا يفعله العنف. ولتعطها كل ما تشتهيه نفسها وكل ما يطمح إليه بصرها، حتى تعيشا في سلام ودعة".

وكل ما تركه المصري في آثار تدل على حضارته، يثبت لنا تمسكه بأهداف هذه الحكمة الخالدة التي جعلها دستورا لحياته. وفي آلاف التماثيل والصور التي وصلت إلينا من هذا العصر القديمة نرى الزوجة إذا مثلت مع زوجها، تضع ذراعها خلف زوجها أو حول رقبته، دلالة على الإعزاز والألفة.. هذا الإعزاز الذي كان طبيعة وسليقة في نفوسهم لا يدخله تكليف ولا رياء، هو الإعزاز الحقيقي الذي كانوا يفخرون بإظهاره في كل مناسبة.

* * *

ومن بين الأشياء التي عثر عليها في مقبرة الملك "توت عنخ أمون" عرش جميل فخم صور على مسنده الخلفي الملك جالساً في عظمة على عرشه في أحد أبهاء القصر، بينما تقف الملكة أمامه في رقة بالغة وتضع يدها على كتفه وتضع على ملابسه وهندامه شيئا من العطر. وليس هذا المظهر الجميل للمودة والإخلاص هو المثل الوحيد، بل إن الزوجين الشابين كانا يضربان المثل كل يوم لشعبهما على الحب وجميل الإخلاص، ففي منظر آخر نقش على ناووس ذهبي صغير نرى الملك منهمكاً في الصيد تساعده زوجته، فتسند يده تارة، وتشير بأصبعها إلى الطيور السمان تارة أخرى، فهي بذلك تشاركه مشاركة فعلية في ملاهيه، كما تشاركه في أعمال الدولة.

وتالله كم هو جميل ذلك المنظر الذي يعجب به كل يوم آلاف ممن يزورون المتحف المصري، وهو يمثل الملك الشاب واقفا ومعه زوجته في بستان ناضر، تحيط بهما الخضرة والأزهار، ويستنشقان عبيرها ويستمتعان بحياة مؤاتية ينعشها الشباب والفتوة والأمل الواسع. وهي عوامل ما اجتمعت لملك إلا علا شأنه وقوى سلطانه. وها هو التاريخ اليوم يعيد نفسه لأن المجد يسير دائماً مع الشباب والفتوة وعلو الهمة.

....

(*) مجلة الهلال – مايو – ١٩٥١

كليوباترا من أعف نساء عصرها (*)

"إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ"

قرآن كريم

بعد وفاة العاهل العظيم الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق. م. تمزقت أوصال إمبراطوريته، وقسمت بين عظماء رجال دولته وقواده، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس أحد قواده الذي اشتهر بالقوة وسداد الرأي مما ساعده على تأسيس دولة عظيمة في مصر أعادت لها بعض مجدها الغابر. وقد سار على نهجه بعض أخلافه المباشرين، إلى أن قطعت مصر في فتوحها شوطاً بعيداً حتى أصبحت أقوى دولة في العالم مدة فترة وجيزة. غير أن فتوة سلوك هذه الأسرة لم تلبث أن تسرب إليها الوهن، ودبت فيها عوامل الانحلال والترف والخلاعة مما قرب أجل أفول نجمهم وضياع ملكهم جملة على يد فاتحين أقوياء. فلا غرابة إذاً أن نرى عند تولية كليوباترا السادسة وأخيها بطليموس الثاني عشر ملك البلاد عام ٥١ ق. م. أن سلطان هذه الأسرة أصبح على شفا جرف هار، وأن نهايتها صارت محتومة. وقد كان بطليموس الملقب بالزمار والد كليوباترا يحس بدنو أجل دولته قبل وفاته؛ لذلك أوصى في وثيقة مختومة حفظت في مأمن في حيازة الجمهورية الرومانية أن يخلفه على

عرش البلاد ابنته كليوباترا بالاشتراك مع أكبر أخواتها جرياً على تقاليد هذه الأسرة الموروثة. وقد كان أخوها الذي سمي فيما بعد بطليموس الثاني عشر حدثاً في العاشرة من عمره. غير أن هذه الوصية لم ترق عندما أعلنت في نظر كليوباترا، ولكنها لم تحاول أن تخفي ما يجيش في صدرها من طموح للاستئثار بعرش البلاد دون شريك لها. بيد أن الأحوال الداخلية لم تكن مهيأة لتحقيق مطمحها؛ إذ كان لهذا الملك الطفل أنصار أشداء يرون أن توليته العرش واجبة. ونخص بالذكر منهم الخصي بثنتس الذي كان صاحب القول الفصل في البلاط، ويساعده على ذلك قائد الجيش أخلاس. ثم مربى بطليموس نفسه ثيودوتس. فلما أحس هذا الثالوث بأطماع كليوباترا أخذوا يدبرون لكبح جماحها والحد من طموحها حتى نجحوا في إثارة شعور أهل الإسكندرية بالتألب عليها. ولما لم تجد لنفسها نصيراً قويا أمام هؤلاء الثوار أزمعت الفرار إلى سوريا حيث جندت جيشاً هناك وسارت به لمحاربة جيش أخيها في مصر، فاعترضها جيش أخيها على الحدود الشرقية عند بلزيوم وحال دون تقدمها داخل البلاد.

وفي خلال تلك الفترة الرهيبة من تاريخ البلاد كانت الحروب الأهلية في الجمهورية الرومانية قائمة على قدم وساق بين يليوس قيصر وبمبي. وقد انتهت بهزيمة الأخير في مصر وقتله بالقرب من بلزيوم على يد أتباع بطليموس الثاني عشر أخي كليوباترا. وفي هذه الفترة كان يليوس قيصر قد حضر إلى الإسكندرية مقتفياً أثر بمبي. ولما كان قيصر يعد نفسه ممثل الجمهورية الرومانية التي وضع بطليموس الزّمار في حيازتها وصيته عن اعتلاء عرش مصر، فإنه ادعى لنفسه حق طلب كليوباترا

وأخيها للحضور أمامه، وأجبرهما على تسريح جيشيهما والخضوع لما يقضي به هو في هذا النزاع القائم على ولاية عرش مصر. فلبى بطليموس نداء قيصر وعاد إلى الإسكندرية دون أن يسرح جيشه الذي تركه مرابطاً في بلزيوم ليعوق عودة كليوباترا إلى مصر.

أما كليوباترا فكانت على يقين من أنها ستقتل على يد أنصار أخيها إذا هي حضرت جهازاً إلى قيصر، فعقدت العزم أن تجعل قيصر يصغى إلى روايتها في ذلك النزاع؛ لذلك عادت سرا على متن سفينة إلى الإسكندرية لا يرافقها إلا تابع واحد وثقت بإخلاصه لها. فلما وصلت إلى مقز الملك احتالت في الوصول إلى حجرة قيصر في قصره، فأمرت أن تلف في بساط ناعم حمله تابعها الأمين على كتفه. واقتحم به أبواب القصر موهماً الحراس أنه قد جاء يحمل هدية لقيصر. وقد أفلح التدبير. ولم تكد عين قيصر تقع عليها حتى أسره جمال تلك الملكة الفتية، وأعجبته مغامرتها وجرأتها المنقطعة النظير. وقد كان قيصر صاحب شهرة ذائعة في استهواء النساء، والميل إليهن، فانحاز إلى جانبها وأخذ يناصرها، ومن ثم بدأت القصة الغرامية المشهورة بين قيصر وكليوباترا. وتدل الآثار المصرية أنه قد تزوج بها على حسب التقاليد الفرعونية. وبعد ولادة ابنهما قيصرون تبعت كليوباترا زوجها قيصر إلى روما حيث مكثت بها إلى أن قتل زوجها عام ٤٤ ق. م. وعندئذ لم تر بدا من العودة إلى مصر على جناح السرعة.

وقد كان موت قيصر سبباً في قيام حرب أهلية أخرى في روما؛ إذ طالب أنطونيو وأكتافيان بدم قيصر من قتلته بروتس وكاسيوس ومن

اشترك معهما. ومن الغريب أن كليوباترا قد لزمت الحياد خلال هذا الشجار الذي نشب في روما فلم تمد يد المساعدة لأحد الفريقين. ولكن أنطونيو عندما تغلب على أعدائه وأصبح المسيطر على كل الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرمانية، لم يغفر لكليوباترا حيادها. ولذلك دعاها للحضور بين يديه في طرسوس لتسوغ موقف الحياد الذي ألتزمته أثناء حروبه انتقاماً لزوجها قيصر.

على أنه كان في مقدور كليوباترا أن تعصي أمره، وبذلك كان عليها أن تتحمل ما سيحيق ببلادها من خراب، وما ينالها هي نفسها من مذلة وهوان، فأثرت أن تذهب إليه بجيش أعظم خطراً وأشد بأساً من جحافله يجعله يضع سلاحه أمامها صاغراً مستضعفاً مهزوماً، فسارت إليه وفي وجهها ولسانها وعقلها تلك الأسلحة الفتاكة التي وهبتها لها الطبيعة. وكأن الشاعر العربي قد عناهما بقوله:

وغزانا بقامة وبعين فذي سيافة وذي طعانه

امتطت كليوباترا متن سفينة زينتها بأفخم أثاث، وحلتها بأبهى الرياش، وجلست في وسطها على عرش في صورة أفروديت ربة الجمال تحيط بها الجواري الكنس في صور ملائكة البحر، وسارت بها السفينة حتى وصلت إلى طرسوس. وقد كانت أول أحبولة نصبتها لأنطونيو وأول سهم رمت به في صميمه أن دعته إلى وليمة على ظهر سفينتها، فكان انتصارها في هذا الحفل مبيناً حاسما، وأصبحت منذ تلك اللحظة معبودة أنطونيو وهدف حياته ومعقد آماله. ولم يلبث بعد هذه المقابلة إلا قليلا

حتى أصبح لها زوجاً شرعيا. وبذلك نجحت كليوباترا في درء الخطر عن الكنانة. وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة أنطونيو وكليوباترا تلك القصة العالمية التي غطت على قصتها مع قيصر، وقد ختمت بموتهما في أحضان الحب الزوجي الطاهر عام ٣٠ ق. م، بعد هزيمتهما في موقعة أكتيوم. ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية التي عثرنا عليها حتى الآن أن اسم كليوباترا قد قرن باسم أي رجل آخر غير اسمي قيصر وأنطونيو، وقد تزوجت بهما على التوالي كما وضحنا.

والواقع أنها قد عاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها.

والآن نسائل: كيف حدث أن سميت باسم المومس الملكية والخليعة الشرقية التي عاشت عيشة الفسق والفجور؟

مكانة كليوباترا في التاريخ

اعتاد الكتاب القدامى والمحدثون على السواء أن يصوروا لنا كليوباترا بصورة امرأة شرقية فاتنة نزاعة للشهوات، ذات سمرة جميلة تفوق النمر في قسوتها، وتختال في حلل ملكية مصرية ذات بهاء ونضرة. وكذلك مثلوها في صورة امرأة تحكمت فيها شهوتها البهيمية، لا تؤثر أحداً على نفسها، تتخطف الرجال وتودي بحياتهم بعد أن تقضي منهم وطرها. وقصوا علينا أنها لوثت شرف رجلين شريفين من أعلام رجال روما وقادتهما للهلاك، وهما قيصر وأنطونيو.

والواقع أننا عندما ننخل البراهين التاريخية التي ادعاها أولئك

الكتاب فإن هذه الصورة المزعجة التي مثلت لنا فيها كليوباترا لا تلبث أن تتضاءل وتتلاشى وتذهب جفاء، ولا يمكث لنا منها إلا صورة أخرى تختلف اختلافاً بيناً عن التي رسمها أولئك الكتاب ذوو الأهواء.

فأول افتراء على كليوباترا أنها كانت امرأة مصرية لحما ودماً. والواقع أنه لم تجر في عروقها نقطة واحدة من الدم المصري، بل هي من نسل أسرة شريفة من مقدونيا؛ فهي إذاً مقدونية المنبت، إغريقية الأصل.

وليس لدينا وصف مفصل عن منظرها، ولكن إذا قسناها بأترابها من بنات جنسها فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء، ويحتمل أنها كانت زرقاء العينين، ذهبية الشعر. ويستنبط من ملامح الرأس الموجود بالمتحف البريطاني- إذا كان حقيقة هو رأسها كما يقال- أنها كانت ذات شخصية تمتاز بالرقة والتهذيب، لا تنم عن جمال فاتن ولكنها وديعة خلابة. ويقص علينا بلوتارخ الذي استقى معلوماته عنها من طبيبها الخاص أولمبياس أن جمالها في ذاته لم يكن خارقاً للمألوف إلى حد أن يجتذب نظر من يشاهدها. وفي اعتقاده أن أوكتافيا زوج أنطونيو التي أصبحت فيما بعد منافسة لكليوباترا كانت أجمل المرأتين. والواقع أن هذا كان رأي كل من شاهدها؛ فقد قال عنها ديو كاسيوس؛ "لقد كان من أسباب المتعة والنعيم أن تراها أو تستمع إلى حديثها، فقد كان لها سحر تغزو به القلوب التي غالبت نفوذ كل حب بقوة ويأس شديد حتى تلك القلوب التي أطفأت فيها الشيخوخة نار الحب وحولتها ثلجاً".

قلنا إنها قد حملت إلى قيصر ملفوفة في بساط على كتف مخلص

من خلصائها. ولا شك أن ذلك يشعر بأنها كانت امرأة صغيرة الجسم رشيقته، وهذا ما ينم عنه رأسها الذي سبق أن أشرنا إليه إن كان ينسب إليها حقيقة.

ويقال إن موسيقى صوتها الخلاب كان أمضى أسلحتها فتكاً وإغراء. ويروي لنا بلوتارخ: "أن من نادمها كان يفتنه سحرها الذي لا يقاوم، وأن صورتها وحديثها يأخذان بمجامع القلوب، وأن شخصيتها الفذة كانت تنبعث في كل تصرفاتها، وكل تلك الميزات كانت تحدث في نفس جليسها حرارة لاذعة لا تنبعث من سواها". ويقول عنها ديوكاسيوس: "إن سحر حديثها كان يستعبد كل من استمع إليها".

أما عن مزاجها فالظاهر أنها كانت ميالة إلى المرح سريعة الاندفاع، مغرمة بالمجتمع البهج، هذا إلى ميلها إلى الفكاهة والمداعبة البريئة. غير أنها عندما يدعو داعي الجد تظهر مظهر الملك يكسوها جلاله وتحفها عظمته. وقد ذكر عنها كل من المؤرخين بليني وكسيوس أنها كانت مستخفة بالناس متكبرة، ولكن هذا رأي عدوين؛ إذ قد تفسر هذه الكبرياء من جانب كليوباترا بأنها عندما كانت في روما كان لزاماً عليها أن تحفظ كرامتها في بلد تحس من أهله العداء لها، فتظهر من الكبرياء ما يحفظ قيمتها وشخصيتها. والأمر الذي يسترعي النظر في حياة كليوباترا أنها قبل أن تتصل بقيصر الذي كان سبباً في عداوة الرومان لها لم تسمع عنها كلمة سوء تمس شرفها رغم ما كان لها من أعداء ألداء في ميداني المجتمع والسياسة. وقد كان تعيش في الإسكندرية ذلك البلد الذي كان غوغاؤه مغرمين بهجاء الشخصيات البارزة فيه عندما كان يظهر في

خلقهم أي مغمز للنقد والتجريح.

وأخيراً كانت كليوباترا تعد بالنسبة إلى عصرها امرأة نالت من الثقافة حظا وافراً. والواقع أن معظم أسلافها من البطالمة كان من هواة الفنون والمشجعين لها، وقد سارت كليوباترا على انهج أسلافها. هذا فضلا عن أنها قد وصلت بذكائها إلى حذق عدة لغات؛ لذا لم تكن في غالب الأحيان في حاجة إلى مترجم عند مخاطبتها الأجانب. يضاف إلى ذلك أنها كانت الوحيدة بين أفراد أسرتها التي تعلمت اللغة المصرية القديمة، كما كانت مولعة بالسياسة وفنون الحكم. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان حلم حياتها ومعقد آمالها أن يمتد سلطان بلدها الضيق وتصبح إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف.

والشائع عن كليوباترا أنها قد دبرت إيقاع يليوس قيصر العظيم في أحابيلها، وهو الذي يقول عنه أعداؤها إنه بطل شريف، وإنه لم يكن له حول ولا طول أمام سحرها الخبيث. بيد أننا إذا نظرنا في الأمر بالعين المجردة من العاطفة والتحيز وجدنا أن قيصراً هذا كان له في صباه سمعة تخدش الآذان إلى حد بعيد؛ فقد كان وهو أمرد يلقب في عاصمة ملكه بلقب ملكة روما. ولما اكتهل انقلب إلى زير نساء، وناهض الملك الضليل في اصطياد النساء وإغرائهن، حتى لقد كان جنوده أنفسهم يتغنون علانية بأغان خلقية شائنة عن فتوح قائدهم في مضمار الحب. ولا نزاع في أن شهرته كانت معروفة تمام المعرفة لكليوباترا الفتية التي كان يحتمل جدا أنها كانت طوال شبابها بريئة طاهرة الذيل، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت لا تجهل الحياة وما تنطوي عليها من مغامرات قد تفلح

وقد تخيب. ولهذا اعتمدت كليوباترا على صدق كل ما قيل عن قيصر، وجازفت لاجتذاب هذا الدكتاتور العظيم إلى جانبها ليكون لها معيناً ونصيراً للوصول إلى مآربها، فاستعملت الحيلة الجريئة التي ذكرناها لتصل إلى حجرته الخاصة. ولقد أفلحت كل تدابيرها؛ إذ نرى قيصر بعد مقابلتها قد انضم إلى جانبها، ومن ثم أصبحت كليوباترا في أعين الرومان حظية قيصر وحسب، ولكن في مصر التي كانت تجري فيها كل الحوادث كان الأمر على العكس من ذلك؛ لأنه منذ العهد الفرعوني كان من الجائز أن يتزوج رجل عظيم لا يجري في عروقه الدم الملكي بوريثة الملك المصرية، وبذلك يصبح ملكاً شرعيا على البلاد يرثه أولاده من بعده. وهذا نفس ما حدث مع قيصر وكليوباترا؛ فقد تزوجا، وأصبح ابنهما قيصرون الوريث لعرش رع الذي كان يعتبر أول ملك حكم مصر في العهود السحيقة. ولذلك كان يعد زواج كليوباترا من قيصر في عين الشعب المصري وفي عينها زواجاً شرعياً، وأن ابنهما قيصرون هو وارث عرش مصر بعدهما. ولكن الأمر في روما حيث تبعت كليوباترا قيصراً كان على نقيض ذلك، إذ كانت تعتبر حظية قيصر وأن ابنها ابن سفاح. وقد كان الشعب الروماني بما جبل عليه من كبرياء وغطرسة يحتقر كليوباترا لأنها شرقية مع أنها ليست شرقية المنبت كما أسلفنا.

ولما كان هذا الشعب يخشى أن يتخذها قيصر زوجته الشرعية لم يأل جهداً في نشر كل رذيلة وفرية عنها بما يلطخ سمعتها، كما كانوا يقذفونها بكل ما يجرح شرفها ويدنس عرضها.

على أن الرومان أنفسهم في ذلك العهد كانوا أكثر الناس خلاعة

وفسقاً ومجوناً وعصياناً؛ فكان نساؤهم ورجالهم يتورطون في مناكب الفجور وينغمسون في ضلال الفسق، تلك الأمور كانت تعتبر شعارهم السائد. ولهذا كان قواد الرومان من علية القوم في الواقع آخر من يشير بأصبع الاحتقار إلى كليوباترا. ومع كل هذه الضجة وهذا الصياح ضد هذه الملكة لم يكن هناك مثقال ذرة من الحق يبرهن أن كليوباترا خلال حياتها مع قيصر قد انحرفت عن الصراط السوي في معاملتها له، بل كانت مثال المرأة المخلصة لزوجها، الرءوم على طفلها. والمرجح أن قيصراً لو امتد به الأجل لتزوج من كليوباترا وفقاً للشريعة الرومانية، وذلك ليوطد بهذه الرابطة التي كان ينتظر من ورائها في المستقبل فرصة الاستفادة من زوجة مطيعة طموح، ومن مصر السلسة القياد ليثب على تكوين إمبراطورية شرقية تكون الهند آخر حدودها. ولا نزاع أن كليوباترا التي كانت تتقد في نفسها نار أطماع زوجها رأت من جانبها ما تخيلته من الإمبراطورية الموحدة الشاسعة الأرجاء تحت سلطان مصر وروما معاً، وأن تلك الإمبراطورية ستصير إرثاً عظيما لولدها المحبوب.

والواقع أنه حتى على أثر مأساة قيصر وفرار كليوباترا إلى مصر على عجل لم تجد ألسنة الهجاء كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة التي انقضت بين هربها ومقابلتها لأنطونيو. على أنه لابد من الاعتراف هنا أن كليوباترا قد دبرت نصب أحابيلها لصيد أنطونيو؛ ومع كل ذلك فإن مقاصدها لم تكن مقاصد امرأة تقودها شهوتها؛ إذ كانت ترقب عن كثب سير الحروب الداخلية التي نشبت بين أنطونيو وأكتافيان، وبين بروتس وكاسيس. ولكنها على غير المنتظر لازمت خطة

الحياد أثناء هذا الشجار الذي لم يكن لمصر فيه علاقة مباشرة، وكانت كليوباترا تعلم ما عليه روما من قوة وبطش، وتحس بالعواقب الوخيمة التي ربما أصابت بلادها إذا هي انحازت إلى جانب الفريق الذي تدور الدائرة عليه. هذا مع علمها أن الحرب قامت من أجل زوجها المقتول.

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب إليها أنطونيو أن تبرر أمامه موقفها الذي اتخذته حياله في هذه الحروب. ولما كانت هي تعلم وقتئذ أن مصر ضعيفة الشوكة لا تجرؤ على مقابلة العدوان بمثله لجأت إلى استعمال الحيلة لتخلص مصر من هذا المأزق الحرج، وبخاصة بعد أن عرفت الكثير من مزاج أنطونيو وطباعه، وما اشتهر به من معاقرته الخمر، وغرامه بالنساء، وحبه الغناء. هذا فضلا عن أنها كانت في الوقت نفسه قد حاكت في خيالها من جديد مشروع إمبراطورية شرقية تتحكم في العالم أجمع. ولا بد أن نلحظ من جهة أخرى أن روما كانت تنتظر الفرصة المواتية لوجود سبب أو وسيلة لإعلان الحرب على مصر للاستيلاء عليها وضمها لممتلكاتها، وبخاصة أن مصر كانت تعد في تلك الآونة مخزن غلال العالم، كما كانت كليوباترا لكل تلك العوامل تعد نجاحها في الاستيلاء على قلب أنطونيو خلاصاً لبلادها مما يضمره لها الغيب.

وكان أنطونيو رجلا يختلف اختلافاً بيناً عن قيصر في مشاربه وأخلاقه؛ إذ كان ألين منه مغمزاً، ولكن ربما كان أكثر منه عاطفة في حبه. والظاهر أنه كان رغم اكتهاله طفلا في خلاقه. حقا أنه كان شجاعاً جسوراً موالياً لأصدقائه، سهل القياد إلى حد أنه كان معبوداً من شعبه

وجنده على السواء، ولكن كان ينقصه مضاء عزيمة قيصر.

وحين وقفت كليوباترا على حقيقة أخلاقه دبرت أول مقابلة له في طرسوس الواقعة على آسيا الصغرى، فكانت موقعة فاصلة في تاريخ حياتها. وتمت المقابلة على ما رسمت ووقع أنطونيو في أسر غرامها. وتدل شواهد الأحوال أن كليوباترا من جانبها قد ولهت بحب هذا الرجل الروماني المشرق الطلعة؛ فكانت نتيجة تلك المقابلة انتصاراً عظيما لمآربها وهزيمة ساحقة لقلبها.

تبع أنطونيو كليوباترا في عودتها إلى مصر، وحدثت أحداث، لم تزوج منها على الشريعة المصرية؛ غير أن هذا الزواج لم تعترف به روما إذ كان له زوج شرعية بها، وهي أخت أكتافيان وقد بقى أنطونيو مع كليوباترا في مصر. ولا نزاع في أن حياة الزوجين في الإسكندرية كانت حياة ملؤها البهجة والسرور، وشعارها المآدب الفخمة والنزه المرحة. ومع هذه الحياة الطافحة بأنواع المسرات لم تسمع كلمة سوء فاه بها أحد تخدش سمعتها أو تثلم شرفها، ولم يقرن اسمها بشخص آخر. وفي الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رءوباً لأطفالها الأربع الذين أنجبتهم من أنطونيو. وفي الوقت الذي أعلن فيه رسميا قيصرون بن قيصر وريثاً لعرش مصر كان أطفالها الأربعة الآخرون قد نصب كل منهم ملكاً على إقليم من أملاك روما المترامية الأطراف. أما كليوباترا نفسها فقد لقبت ملكة الملوك.

وعلى الرغم من ذكاء أنطونيو وحب الشعب له فإنه لم يكن بالرجل

الذي في مقدوره أن يؤسس إمبراطورية تشمل العالم كله؛ إذ كان على ما يظهر كلما تقدمت به السن فقد من إقدامه وجرأته. وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رجلا مخموراً لا يفيق من سكره. وفي نهاية الأمر اتسع خرق العداوة بينه وبين روما، وبخاصة عندما طلق أخت أكتافيان مما أدى إلى حروب داخلية، ومن ثم أخذ نجم أنطونيو يأفل. ولا بد أن تكون كليوباترا قد أحست وقتئذ بالخطر الداهم، وشعرت أن الدائرة لا محالة ستدور عليها في نهاية الأمر، لاسيما أن أنطونيو قد أصبح مثله كمثل يراعة هشة لا يمكن الاعتماد عليه، ولو كانت كليوباترا حقيقة من طراز المرأة المراوغة الخداعة، كما وصفها أعداؤها، لنبذت أنطونيو وتركته فريسة أعدائه عندما أحست بأول إشارة تنذر بسوء المنقلب،ولنصبت حبائلها لتوقع فيها أوكتافيان الذي أخذ نجمه يتلألأ ويلمع. والواقع أننا نجدها وقتئذ تابعة مخلصة وفية لأنطونيو إلى أن لفظ النفس الأخير ثم إنها بعد ذلك أظهرت عليه الحزن والجزع بقلب كسير ملؤه الوفاء إلى أن لحقت به في مثواها الأخير بعد موته بفترة وجيزة.

ويعتبر المؤرخون اغتيالها نفسها، الذي كان على ما يرجح بنهشة ثعبان، نهاية مشرفة نالت الإعجاب التام حتى من أوكتافيان نفسه ألد أعدائها، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصية أوصت بها، فشيعها بكل مراسيم الملك إلى جوار زوجها الوفي أنطونيو.

ومما سبق نرى أنه حينما ندرس حقائق التاريخ. عن حياة هذه الملكة درساً محايداً فإنها تظهر أمامنا في صورة الزوج الطاهرة الذيل لكل من زوجيها على التوالي، وأنها كانت أمًّا حنوناً لأبنائها الخمسة.

على أن القليل الذي كتب مدحاً فيها قد سطرته أقلام كتاب محايدين، أما ما كيل عليها من ذم وتجريح فقد خطه يراع أعدائها السياسيين المنافسين لها، ولاسيما أهل روما الذين كانوا يمقتونها كل المقت لما كان لها من نفوذ على أعاظم حكامهم، وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يخضع كبرياؤهم وتعصبهم حتى لتصور أنهم يحكمون بملكة شرقية.

ولم يبق أمامنا من التهم التي وصمت بها "كليوباترا" إلا تهمة القسوة والغلظة.

حقا أنها كانت ذات إقدام، ولكن أين البراهين التي يدلى بها على أنها كانت قاسية القلب غليظة الطبع؟

وأول تهمة شنعاء لصقت بها هي قتل أختها أرسنوي بتحريضها؛ ولكن أرسنوي هذه كانت أول من أعلن العصيان وشق عصا الطاعة على كليوباترا وقيصر. ولما أخمد هذا العصيان وقبض على أرسنوي، استعرضت في شوارع روما مكبلة بالسلاسل والأغلال في ركاب قيصر عندما دخل عاصمة الملك مظفراً. ولقد كان المتبع عند الرومان أن أمثال أرسنوي من الأسرى الملكيين ينفذ حكم القتل فيهم بعد احتفال عرض الفاتح المظفر، غير أنه قد عفي عن هذه الأميرة وصرح لها أن تعود وتلازم إحدى المعابد المصرية. ولكن لم تنقطع عن تدبير الثورات والمكايد ضد الملك، فقتلت بأمر من أنطونيو وبتحريض من كليوباترا.

وكذلك اتهمت بأنها دست السم لأخيها الأصغر وشريكها الأسمى الذي كان يحمل لقب بطليموس الرابع عشر، وهو الذي رافقها في

زيارتها المنكودة إلى روما، ويقال إنها دست السم له بعد عودتها من روما بقليل؛ غير أنه ليس لدينا شعاع من الحقيقة يثبت ذلك، بل المظنون أن هنا الصبي قد وافاه أجله دون اغتيال.

حقا أن كليوباترا قد أمرت بقتل بعض من أودعوا السجن لأنهم تآمروا على اغتيالها وأثاروا الفتن والقلاقل في ملكها. وإذا فرضنا أنها أمرت حقيقة بقتل أرسنوي التي كانت تسعى لاغتيالها وانتزاع ملكها، فإنها لم تكن أسوأ أخلاقاً من الملكة اليصابات الطيبة عاهلة انجلترا التي سجنت أختها ماري ثم قتلتها. ومع ذلك فإنها لم تتهم مطلقا بحب سفك الدماء لذاته بسبب هذا الحادث.

وكذلك سجل عليها التاريخ، كذباً كان أو صدقاً، أنها عندما كانت تبحث عن سم ناجع يقضي على حياتها دون آلام قد أجرت تجارب تلك السموم على مجرمين حكم عليهم بالقتل. والواقع أن هذه الطريقة لا تتفق مع المبادئ الخلقية الحديثة التي تفضل إجراء التجارب الطبية على الحيوان الضعيف الذي لم يجن إثماً ولم يقترف ذنباً، ولكن العصر الذي عاشت فيه كليوباترا كان ينظر إلى هذه الأشياء ينظر مختلف؛ إذ كان لابد للمجرم المحكوم عليه بالقتل أن يموت بحال من الأحوال. لهذا كانت طريقة هذا القتل في نظر عصرها ليست بذات بال، ولكنها كانت على أعظم جانب من الأهمية لكليوباترا التي كانت تبحث عن طريقة تخلصها من الحياة التي أصبحت لا تحتمل بعد موت زوجها بطريقة لا تعاني بها آلاماً. هذا ولم يعز إليها ارتكاب جرائم قسوة غير ما ذكرنا إذا كان ذلك صحيحاً. على أنه من جهة أخرى كانت كليوباترا تعيش في

عصر يتشدق فيه الجم الغفير من المتعلمين بعدم وجود آلهة، أما هي فكانت على جانب عظيم من التقى، تعتقد اعتقاداً راسخاً بتوحيد الألوهية والملكية؛ إذ يقال عنها إنها كانت في مناسبات عدة ترتدي ملابس الالاهة إزيس لتمثلها على الأرض؛ فكانت بذلك تمثل الحقوق الإلهية الموروثة، ولكنها لم تقتصد مطلقا أن تمثل القوة الإلهية؛ لأن الفراعنة القدامى كانوا يعتقدون دائماً أنهم يتقمصون صورة رع إله الشمس على الأرض، ولذلك ظهرت كليوباترا عندما مثلت هذا الدور المصري القديم في نظر شعبها أنها تمثل على مسرح أو تلعب دوراً خارقاً للمعتاد.

ويمكن أن نقرر هنا أنه من المحتمل جدا أن كليوباترا لم تكن ترتدي الملابس المصرية الحقيقية إلا في مثل هذه المناسبات؛ لأن اللباس الإغريقي كان الزي المتبع بين الطبقات العليا من المجتمع. وأخيراً يجب على المؤرخ عندما يفحص أخلاق أشخاص عاشوا في الماضي أن يزنهم بميزان العصر الذي عاشوا فيه، وأن يحكم عليهم بحسب المستوى الاجتماعي الذي عاشوا فيه لا بمستوى عصره. فإذا وضعنا كليوباترا في كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فإنها تظهر أمامنا المثل الأعلى في الطهر والعفاف، فلم تعد أن كانت زوجاً مخلصة وأمًّا رءوماً، وإذا قسناها بغيرها ممن سبقوها، وهم أولئك الأشخاص الذين قست قلوبهم، وتحجرت ضمائرهم، وارتكبوا من الآثام ما يدمي القلوب دون أن يوجه إليهم لوم أو تجريح، فإنها تعد ملكا طاهراً بريئة من كل قسوة. على أننا لو حكمنا عليها بميزان عصرنا، وإن كان حكماً خاطئاً

من الوجهة التاريخية ونجحنا من الوجهة الخلقية، فإنا سنجدها امرأة ألقي بها القدر وسط فتن عاصفة وأعاصير مهلكة، ولم تعد أن شقت طريق الخلاص لنفسها بحزم وضبط نفس واحتشام، وفي نهاية المطاف لاقت حتفها تحفها أبهة الملك وجلاله مما أرغمنا على الإعجاب بها كا أرغم ألد أعدائها أكتافيان الروماني على إجلالها حتى نفذ آخر وصية أوصت بها.

هذه هي كليوباترا ملكة الملوك في كفة الميزان كما حدثنا التاريخ المنصف لا كما تحدث عنها أعداؤها الذين خبثوا ووضعوا، فكان حكمهم زيفاً وضلالاً. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ".

....

(*) الكاتب المصري – نوفمبر – ١٩٤٧

الفهرس